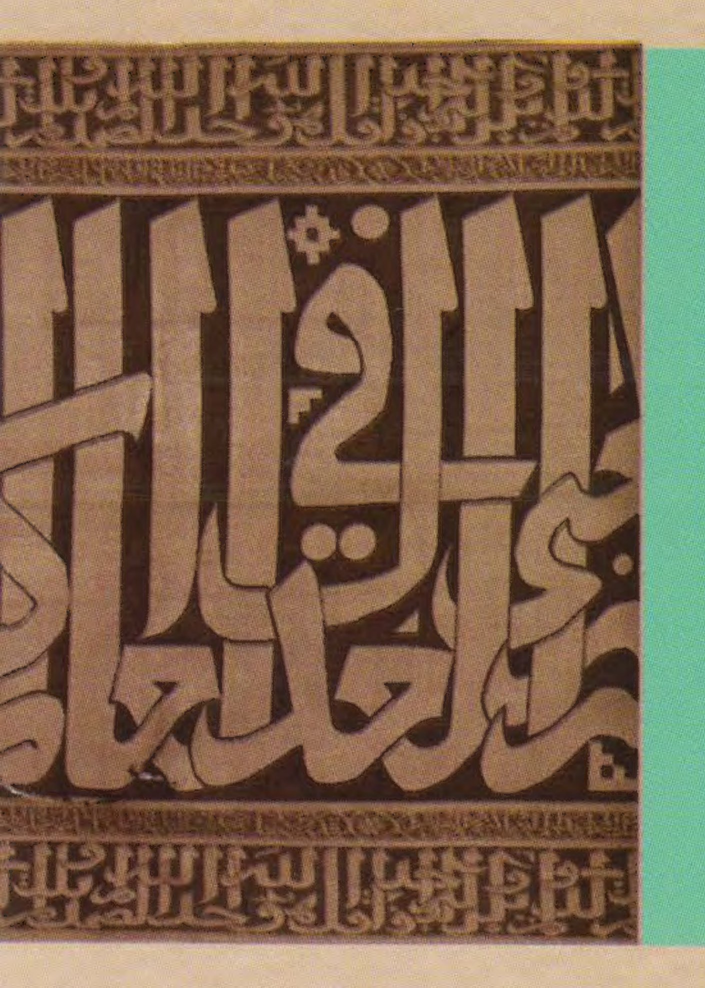
سلسلة الأخلاق والعرفان

2





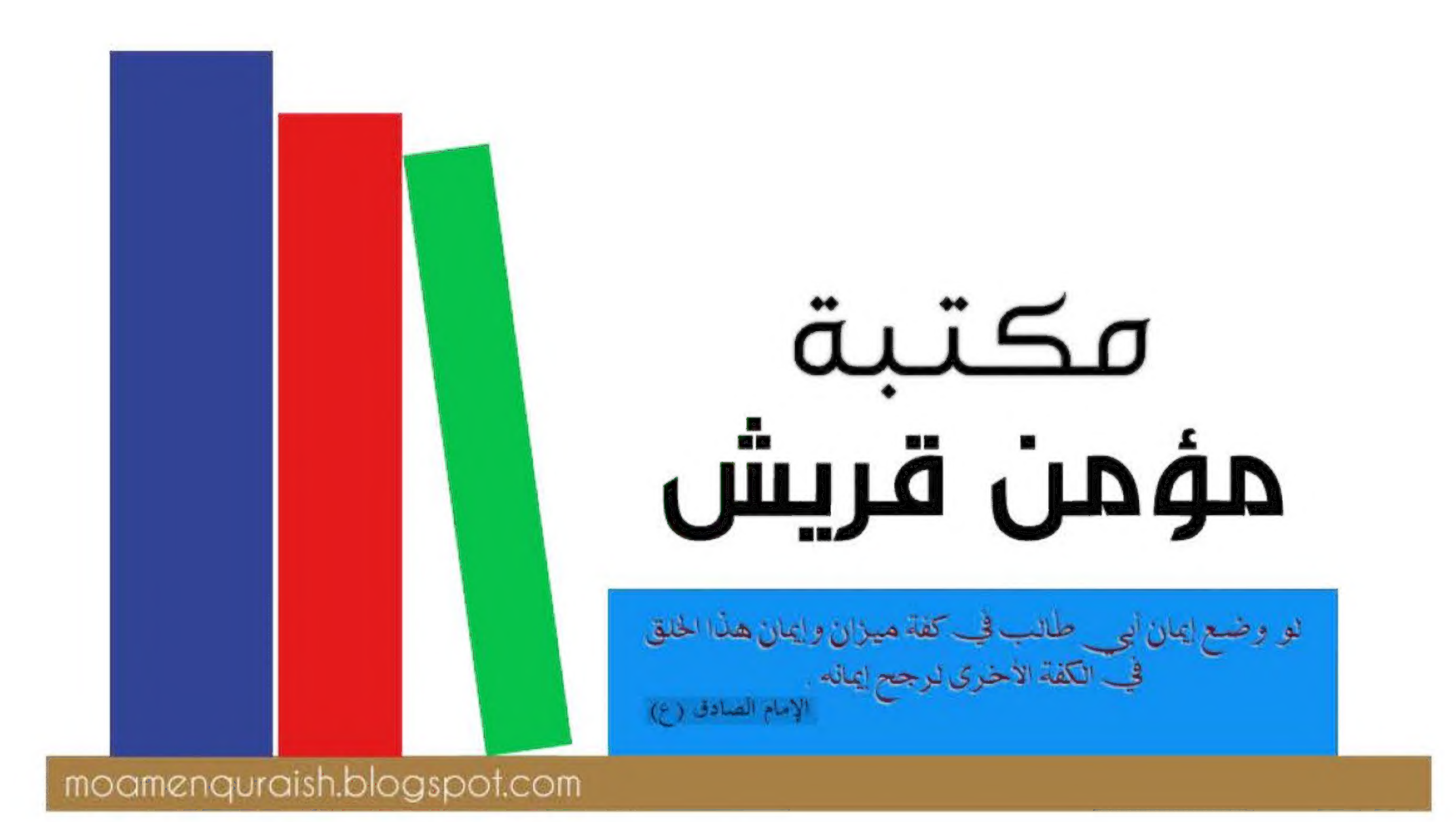
التحلّي

المفردات الروحيّة والمعنوية

الجزء الأول

كريم محمود حقيقي




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

التحلي

المفردات الروحية و المعنوية


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الأخلاق والعرفان
(٢)

التحلي

المفردات الروحية و المعنوية

(الجزء الأول)

تأليف:
كريم محمود حقيقي

ترجمة:
زهراء يگانه



ابداع للنشر

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠٣/٢٥٧٩٨٤ - فاكس: ٠١/٥٥٣٤٥٦ - ص.ب: ٢٥/٣٥٥ - غبيري - بيروت
Daralkatebalarabi@hotmail.com

الديباجة

باسم رب صفات التحلي والكمال، المُطهّر الجميل الذي اراد لعباده الطهر والجمال والحسن، فصارت درجة تحلينا بهذه الصفات مقياس قربنا إلى ذاته.

ايها العزيز! لو كنت تصحبنا خلال هذه الرحلة في طريق سار فيه الأنبياء والصالحون، فهل يا ترىٰ تحمل معك ذكريات من الماضي عن مواكبتك النفس والشيطان وانغماسك في بحر الهوى ومزالق الخذلان؟!

أَحمدِ الله وأشكره أنه وفقك أن تطوي عنها كشحاً وتعود إلى ربك تائباً.

جذور منابت الأشواك والقذىٰ كانت قد ضربت أطناباً في أعماق مزرعة القلب، اجتثثتها باصولها محدثاً انتفاضة في هذه الديار. قلبت تربتها فاختفت ولله الحمد آثار تلك الأشواك تماماً. فهل تعلم أنك صرت إلى أرض فيها تتنزل أمطار الرحمة الإلهية وفي أجوائها تهب أنسام الحياة الطيبة؟ فإن غفلت أن تودع في هذه المحطة غرسة أو

تزرع فيها للورد جنبة يكون نصيبك صحراء هي من الأشجار والنباتات جردة ليس فيها ما يستجلب لك لذة.

ما أهدف إليه في هذا البحث هو أن نتقن معاً نهج إيداع الغرسات وطريقة زرع الجنبات لنقيم رياض الأزهار والورود ونعتز بها أبد الدهور.

طهّرت غديرك مما امتزج به من حمأ ونفايات وأزلت ما به من مياه وتلوثات، فعم الغدير كله النقاء. ولكن ليس في الغدير المتجفف جمال، لابد أن توجه نحوه مجرى الماء ليتدفق إليه فتصقل نفسك بفيض ما فيه من صفاء.

كنت قد حدثتك أن مسيرنا ينتهي إلى عظيم هو مصدر كل عظمة. إنه ملك الملوك، سلطان السماوات والأرض. الأبواب إلى حضرته موصدة إلّا لمن زين النفس والقلب معاً. حديثنا في هذا البحث يدور حول هذه الزينة والتحلي.

إنك بعد تزكية نفسك من الشوائب صرت تقف على طريق الفلاح.

﴿قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾[1].

لبعثة الأنبياء هدفان، أولهما تزكية النفس ثم الاتصال بالمعرفة. وقد اجتزت المحطة الأولى بخطوتين، فاعلم أن:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم

---

١ ـ سورة الشمس، الآيتان (٩ و ١٠).

ويعلمهم الكتاب والحكمة. وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[١].

ثم أنك ظفرت بجنة الخلد فتهانينا بخلودك في الجنة.

﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّىٰ﴾[٢].

فهذه النعمة العظمى إنما هي فضل من ربك الكريم أغدق به عليك. فالتزم طريقتك حتى تبلغ منزلة تجلي الذات والصفات الإلهية. فلولا ما نالك من فضل الله لما وفقت لبلوغ هذه المنزلة:

﴿لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله يزكي من يشاء﴾[٣].

أَوَ تعلم أن فريقاً من الناس يأبى الله في يوم الحساب أن يلقي عليهم نظرة أو يحدثهم أو يزكيهم. وما نصيبهم في تلك الدار إلّا لوعة فراقه المؤلمة.

استمع إلى حديث القرآن:

﴿اولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾[٤].

فاحمد الله أنك لست من هذه الزمرة المنبوذة، واعلم أنك مهما تجد

---

١ ـ سورة الجمعة، الآية ٢.

٢ ـ سورة طه، الآية ٧٦.

٣ ـ سورة النور، الآية ٢١.

٤ ـ سورة آل عمران، الآية ٧٧.

وتبالغ في حمده على هذا التوفيق لم تأت إلّا بالقليل.

اشدد حزامك الآن فالطريق معبد أمامك والصبح وشيك. أنسامه سوف تداعب وجودك عن قريب ويعلو صياح حادي الركبان بنداء الرحيل، فخذ عدّتك واختر جواداً هملاجاً مطواعاً، أحكم شد العنان واعتل جوادك، فالمنازل في طريقنا كثرة.

ردود على بعض الاستفسارات:

سُئلت: ما تتضمنه حلقات هذه السلسلة، هل هو نص مكتوب أم كلام مُرسل؟

الحقيقة أنني كلما أمسكت بالقلم بين أناملي أراك أمـامي مـتلهفاً للحديث، ترهف السمع. فأنا نفسي لا أدري هل يترتب علي أن أفرغ ما في جعبتي بنص مكتوب أو كلام منطوق. فهذا ما عندي، أنت سمّه كما يروق لك.

***

قيل التزمتَ نثر القرون الماضية. أقسم أنني لست وليـدها، ولكـن الحقيقة هي أن الوله لا يعرف للزمان معنى، وهكذا اللسان فما ينطق إلّا مضطراً. إنه يكابد الغربة، فما من أحد يعرف لغته وبعدت به الشقة عن موطنه والحديث متداول بلغة الأغيار. إنه يتقصى الألفاظ ويبحث عن المفردات، ومع ذلك لا يقوى على التحدث عما بحوزته، لا يهمه

لو استطاع إلى ذلك سبيلاً، أن تكون ألفاظه وعباراته مما يناسب هذا القرن أو القرن المنصرم.

أمّ تحب الرمان وتهيم كذلك حباً بولدها العزيز فبأي تعبير يمكن التحدث عن هاتين الظاهرتين؟ الحقيقة أن كلام الحب لا تتداوله الألسن بل النظرات بل جسم الواله يتحول بكله إلى لسان ناطق. فالنار تُعبر بأسلوب الدفء ولهيبها بأسلوب الحرق.

أشعر بعجزي، بقلة حيلتي، لا أدري بنثر أي قرن أعبر عن مشاعري؟ الحيرة ملكت عليّ أفكاري. لم أسأل كتاباتي حتى الآن وليدة أي قرن هي؟ ولو سألتني: عماذا تكتب؟ الحقيقة أنني نفسي لا أعرف! كل ما أعرفه أن القلب هام فأجاد بفيض من كلام. فما يذكرني بالحبيب له من بركان نفسي نصيب. أراني أقعد على نار متأججة تثير حمماً. فكيف لي أن أمنع فوراني أو أن أحدد صيغته. أنت سمّه كما تحب. لساني لا أقوى على ضبطه. نفسي الملتهبة تنطلق حممها، لا يقيّدها زمان ولا يمسكها مكان. فترانيمها تتردد بلغة موحدة. على مدى الدهور والعصور.

***

وأنت يا من قلت: نترك بري متوحش، تقبل تحياتي أولاً ثم اعلم أنني أقسم أنني جهدت في ترويضه فما وفقت لذلك.

إنه حب بري، متصحر، لا يكبله نظام، واللا نظام بحد ذاته حسن فيه. فصولات الحب مسرحها الغابات وليست الحقول. الحب نار ضارية لا مصباح كهربائي. إنه إعصار كاسح لا نسيم مداعب. هذه هي

حقيقة ما يترشح عن قِربتي.

فما دام كلامي بري الاسلوب، التفتُّ أنني أنا الآخر بري الطباع ولا هاجس لي من ذلك.

***

وهنالك من قال: لكم تكرر عبارة: ايها العزيز؟!

فيا ايها العزيز! إنني أحبك. كل من فتح كتابي متلهفاً لمطالعته تعرّف على أسراري وعرف آلامي ومعاناتي، فَلِمَ لا أناديه يا عزيزي؟ إننا نحتفظ بأسرار بعضنا، تزاملنا على طريق الحب، تفهمنا لغة بعض والتفتنا إلى اسرار بعض. فمن يكون أعزّ منك عندي؟

عسىٰ أن لا أكون اصبتك بالملل، لأعودن إلى موضوعي:

هل أعددت للقاء حلته؟

تعتزم زيارة قصر سلطان السلاطين؟ هل اكتسيت مـا يـليق بـهذا الموقف؟

أعلم انك دخلت إلى حمام النفس وأزلت عنها التلوثات. ماذا عن هندامها؟ إن كان لا يليق بهذا الموقف، إضرم فيه النار فقد بلغت محطة تمنح فيه للراغبين حلة مناسبة.

إن لم تحصل حتى الآن على حلة ولباس مناسب فلا بأس عليك فإنني مثلك، وقد بلغنا حيث لا متسول يُهان مستحقراً ولا معوز يـرد خائباً، بل الملفت أنه مقام لا يستقبل إلّا المتسولين المـحتاجين فـلا هناء للبؤساء إلّا في ظله ولا سند للمتسولين سواه. نتحمل حلكة الليل بأمل نعمة الشمس ان تشرق فتخلصنا من الظـلام. لنشـطب العـيوب والزلل من قائمة وجودنا ونضيء مصابيح الحلل في نفوسنا.

فالظلام عدم لا يكتسب. أنت تتقصى النور فقد بلغنا مصدره وهو

الذي وعدنا: ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[1].

عسىٰ أن تحفظ ما تحمله من زاد للطريق بعيداً عن يد القراصـنة. تشبث إلى ذلك بحبلٍ هداك الله إليه.

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

«التقوى، أفضل الزاد»

التقوى تعني «الحفظ». وأنت لك أن تكون صاحب رصيد وثروة إن كنت ملماً بقوانين «الحفظ». فلولا الحفظ والتحفظ لتسحقنك الأهوال بأعاصير الأثقال فلا تبقي عليك من شيء.

قضيت عمرك مصلياً، متضرعاً إلى الله، صائماً في رمضانك، أحرمت حاجاً، قطعت الطرق زائراً مراقد أهل بيت رسول الله ﷺ، ولكنك عندما تتقصى حالك وخاتمة مصيرك يأتيك الرد. فتعلم أن جعبتك خاوية ويدك قصيرة فنأيك عن التقوىٰ أتاح لفيضان نهر الذنوب المجال ليجرف ما أدخرت من زاد.

التقوى درع واقية لك. لا تعيث فيها آفة أية ثروة فساداً. دعني أشبه لك الموضوع، زيادة في ايضاح معنى «التقوى».

لجسمك إزاء الحوادث نظام وقاية مدهش يتفاعل تلقائياً كما في:

ـ رموش العين، تلتصق مع بعض عند إثارة الغبار لمنع تغلغل القذى إلى العين، والغدد الدمعية تتعهد بدورها بغسل العين إذا ما ورد إليها

شيء حتى يُطرح الجسم الوافد إلى الخارج.

ـ أعضاء الجسم إن ارتطمت بشيء ساخن تندفع فوراً إلى اتـجاه معاكس.

ـ اللسان إذا ذاق ما لا يستذوق يقذفه في اللحظة إلى خارج الفم.

ـ الأنف إن اقتحمه ما يؤذيه يتخلص منه بالعطاس.

ـ المعدة إذا تحامل عليها فاسد من طعام أو شراب تتقيأه.

ـ أَما استوعبت الأمثلة؟! كأن جميع اعضائك تستند إلى نظام وقاية إخراجية. فلنستعلم نظام وقاية قلبك ونفسك من أي نوع هو؟

ايها العزيز! احفظ بالتقوى:

ـ لسانك من أن يردد كل ما يهمس به الشيطان في أذن نفسك.

ـ عينك من ان تكون مضيفاً يستقبل ويأوي ما حرم عليها.

ـ اذنك من أن تتحول الى جهاز تسجيل يسجل كل صوت اعتباطياً دون تقييم صلاحيته.

ـ يدك من أن تجعلها مسحاة كناس فتلوثها بِغَرْفِ الأوساخ بجميع أشكالها.

ـ قدمك من أن تتمثل بأقدام البجع تغمسها في كل ماء آسن وتسلك بها الطريق إلى المستنقعات واللجج.

التقوى يعني أن تُقيم محطة تفتيش عند جميع أبواب معنويتك كما تفعل النحل في بيوتها تُمزق عنده كل نحلة غريبة ويُـلقى أربـها إلى الخارج.

طوبىٰ لقلب حُفظ بمثل هؤلاء الحرس! فلصاحب مثل هذا القلب نفس زكية ولصاحب هذه النفس رب وحبيب ليس كمثله شيء.

دعني آتيك بمثل آخر:

نثرت في مزرعة قلبك بذور أزهار كثيرة وزرعت أغراساً متنوعة. ولهذه المزرعة حاجة إلى الماء لتنمو وتثمر. فهل علمت ممن تسقى؟ اسمع جواب السؤال من الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«فالتقوى للطاعات كالماء للأشجار».

استمع إلى مثال آخر:

للطيور جناحان تحلق بهما إلى حيث أقامت عشها، وعشك جنتك. لطائر نفسك أن يحلق بجناحين رصينين إلى موقعها. فتقصَ من القرآن ما هما هذان الجناحان:

﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[1].

لم يستثن من بين الأنبياء وأولياء الله من لم تكن التقوى أول ما أوصى به الآخرين تعمق في الآيات:

﴿وإذا قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾[2].

﴿إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون﴾[3].

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٨٦.

٢ ـ سورة الشعراء، الآية ١٠٦.

٣ ـ سورة الشعراء، الآية ١٢٤.

﴿إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون﴾[١].

﴿إذا قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون﴾[٢].

﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾[٣].

﴿وإن إلياسَ لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون﴾[٤].

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمد ﷺ أن:

﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾[٥].

أما عن رسول الله ﷺ فانه يقول:

«من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله».

ووليه أمير المؤمنين عليه السلام هو الآخر يؤكد:

«أوصيكم بتقوى الله فإنها غبطة للطالب الراجي وثقة للهارب اللاجي. استشعروا التقوى شعاراً باطناً، واذكروا الله ذكراً خالصاً، تحيوا به أفضل الحياة»[٦].

واستمع إلى حديث عن الإمام السجاد زين العابدين عليه السلام حيث

١ـ سورة الشعراء، الآية ١٤٢.

٢ـ سورة الشعراء، الآية ١٦١.

٣ـ سورة الشعراء، الآية ١٧٧.

٤ـ سورة الصافات، الآيتان ١٢٣ و ١٢٤.

٥ـ سورة الزمر، الآية ١٠.

٦ـ تحف العقول، حكم ومواعظ أمير المؤمنين (ع)، ص ٢٠٢.

يقول:

«فاتقوا الله عباد الله. واعلموا أن الله عز وجل لم يحب زهرة الدنيا وعاجلها لأحد من أوليائه، ولم يرغّبهم فيها وفي عاجل زهرتها وظاهر بهجتها وإنما خلق الدنيا وخلق أهلها ليبلوهم فيها أيهم أحسن عملاً لآخرته»[١].

أخشى أن أرهقك وإلّا ففي البحث مجال لتأليف كتاب مما جاء عن رواد الدين من أحاديث في التقوى ولكن الحر تكفيه الإشارة. فإن تجد نفسك استهللت المضي في هذا السبيل فتقبل مني التهاني. إنصت إليّ لأبشرك بنتائج امتحانك وابتلائك.

١ ـ روضة الكافي، ص ٧٥، كلام علي بن الحسين (ع).

«ثمار التقوى»

لَكَم يستعذب بنو الانسان حلاوة الربح ولذته، وما أشد وَلَهَ بعضهم بشراب الأمل والتمني! ما بال الانسـان، وهـو يـتحمل عـناء السـير كيلومترات للحصول على طعام ويستخدم مئات الوسائل والممهدات لتحقيق طموح، لا يتقدم خطوة إلى الأمـام لنـيل التـقوى ولا يشـده الشوق للتحلي بها وفيها ما لا يعد ولا يحصىٰ من المردودات؟! دعني أحدثك قليلاً عن هذه المنافع عسىٰ أن يجعل لك ربك نصيباً منها:

١ ـ أول ثمار التقوى أن يكون الله معك اينما تكـون. فـما أعـظم تفردك وأشد عجزك وأكبر حاجتك وأوسع فقرك! والمـتفرد بـحاجة للسند والمعيل، والعاجز للقوة، والمحتاج الفقير إلى غني كريم. وأنت تحمل كل الخيرات معك طالما هو معك. ألم تسمع:

﴿وأعلموا أن الله مع المتقين﴾[1].

٢ ـ ثاني ثمار التقوى أن يحبك الله، أن يغدو كل مـا لديك، وهـو

---

١ ـ سورة التوبة، الآية ٣٦.

صاحبك وسندك وذخرك وهو يعينك في كل أمورك.

لا أعلم يا عزيزي هل تذوقت طعم الصحة الحقيقية؟! هل تعلم ما في المودة والمحبة الواقعية من لذة!

يقول تعالىٰ:

﴿بلى من أوفىٰ بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾[1].

ولشمس الحب هذه مشرقان، أحدهما «الاشراق الرباني» والآخر قلبك ونفسك، فأنت تنال من دفئها وهو كذلك يبادلك الحب في ظل تقواك:

﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾[2].

فللمحب نفس من نوع آخر وعالم من نمط آخر، له ذوق خاص ويكرع الثمالة من كأس خاص.

تعمق فيما تبلغه بالتقوى من أبهة وهيبة! فالغني يحبك بها. فماذا يعكر صفو قلبك وهو يغدو عرش ربك؟

٣ ـ ألا ترغب بمصاحبة حكيم يوجهك على مر حياتك، ويكون لك جليساً؟

أدلك على حكيم لا يتقبل كل من هبّ ودب جليساً ولا هو لأي كان محدثاً، إسمه القرآن:

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٧٦.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ٥٤.

﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾[١].

ولكن.. شريحة خاصة فقط يستمعون لمواعظه ويجالسونه وينالون المنافع تلو المنافع من كلامه.. انها شريحة «المتقين»:

﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾[٢].

٤ ـ استمع إليّ أحدثك عن ثمرته الرابعة: قد يستمع الإنسان إلى الموعظة ولكنه لا يهتدي السبيل إلّا أهل التقوى، فقد ذهب عنهم العناء وأتاهم الثراء. نجوا من الحمم وظفروا بالنعم، تركوا الشقاء خلفهم ووجدوا الهناء يستقبلهم. وهذا الحكيم لا يكتفي بإسداء الموعظة بل يهديك السبيل أيضاً:

يقول تعالى:

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[٣].

ولكن اعلم ايها العزيز، أنك لا تحظى بهداية القرآن ما لم تتلبس بلباس التقوى. فعليك بالتقوى إن كنت راغباً في الفوز بالهدى. كن متقياً إن كنت لديار المحبوب قاصداً فالقرآن يحقق مطمحك بهداه.

٥ ـ وإن سألتني عن ثمرته الخامسة فانصت لي اسمعك: المضيّف أعد المائدة.. صاحب الروض فتح أبواب جناته وكان قد وعدك باستقبالك في جنة النعيم، حورك تزينت لك، وأنهارك تداعبك بألحان

---

١ ـ سورة يونس، الآية ١.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٣٨.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ٢.

خريرها وعذب مياهك إنساب نحوك:

﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للابرار﴾[١].

فمفاتن الدار الآخرة وخيراتها اختصت بالمتقين:

﴿جنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين﴾[٢].

هاك جنتك ودار خلدك. اعلم انك اكتفيت ولكن ربك زادك. واصل استماعك لي لأُؤجج لهفتك إلى التقوى فاحفظك من ضنك الاكتئاب في رحلتك. لك أن تأتي بالمبرات والحسنات ببساطة ولكن أي الحسنات يتقبلها الكريم المتعال؟ ما تقدم لنفسك تجده حاضراً. واعلم ان الأمين أنذر أن يجعل عمل الكثيرين هباء:

﴿وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾[٣].

تقول: وما حيلتي لعلاج هذا الداء ووقاية نفسي من هذا العناء؟

٦ ـ الثمرة السادسة هي الجواب، يأتيك ضمن قوله تعالىٰ:

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾[٤].

لا أعرف إن كنت ممن تتعجل في الاختيار أم تتريث فيه؟ تتقصى الأول أم تنتقي الآخر، أجد عامة الناس يفضلون انتظار العاقبة ولهم

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٩٨.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٣٣.

٣ ـ سورة الفرقان، الآية ٢٣.

٤ ـ سورة المائدة، الآية ٢٧.

في ذلك أمثال وحكم. أما خاصة خلق الله فكلهم يعنون بالخاتمة وقد علقوا آمالهم على الآخرة.

أنت بدورك اجعل العاقبة محطة اهتماماتك فانظر في الثمرة السابعة تلتفت إليها ضمن الآية:

﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾[١].

وأما الاشارة الأخرى فإنها فيما يخص الطامة الكبرى حيث يتحول المعارف غرباء والأصدقاء أعداء وتجد المقربين، عنك ينؤون، والأقرباء لك يهجرون. هذا مآل الجميع في يوم القيامة، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾[٢].

وهؤلاء هم أقرب المقربين إلى المرء. إنها محنة كبرى، فحاجة الإنسان إلى الأصحاب والانصار والمعارف تتعاظم عند الشدة. وأية شدة أعتى من يوم القيامة؟!

﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾[٣].

أجل هو هكذا. هذا هو مصير بني الإنسان كلهم. أما إذا كنت من أهل التقوىٰ فالخطاب الرباني يستثنيك من ذلك حيث جاء فيه:

---

١ ـ سورة هود، الآية ٤٩.

٢ ـ سورة عبس، الآيات ٣٤ ـ ٣٦.

٣ ـ سورة المدثر، الآية ٩.

﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلّا المتقين﴾[1].

في ذلك اليوم عندما يبرز النعيم وتظهر الهيبة عند المتقين، يستظلون بأشجار السرو والياسمين ويقطفون ما حلا لهم من أزهار أثمرها اليقين. يتهافت الأخلاء على بعض يتسامرون فيما كان لبعضهم البعض من موقف إسنادي ثمين. كل هذه النعم تتأتاهم من فيض صداقة أصحاب اليقين وهم على أصحابهم يثنون:

والحظوة بحب الأصحاب هي بحد ذاتها نعمة عظمى اعتبرها ثامن ثمار التقوى لترتقي مرتبة نيل الثمرة التاسعة من هذا الريع حتى يرتاح إليها قلبك وتهنأ في ظلها نفسك.

فيا ايها العزيز، تعلم ان الطريق لجد موحش، والسالك يواجه في كل من لحظاته مئات الأخطار ومئات الفخوخ. إقصِ عن نفسك الخوف قدر المستطاع. تلبس برداء التقوى واسمع خطابه عز وجل في الآية:

﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2].

ولا ينكر ما للصحبة من لذة ولفراغ البال كذلك. أمهلني أحدثك لحظات أخرىٰ عن التقوى حتى نبلغ ذروة شموخها:

وأما عاشر ثمار التقوى، فامعن التفكير فيها: إنك لو أعرضت عن ذكره لتجدن الحياة ضنكاً في ضنك:

---

١ ـ سورة الزخرف، الآية ٦٧.

٢ ـ سورة الأعراف، الآية ٣٥.

﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾[١].

ألا ترغب ان ترفق بك الدنيا ويبتهج قلبك وتزدهر حياتك؟ التـزم التقوى نهجاً، تتفتح أمامك إلى العز والبهاء أبواب:

﴿فأما من أعطى واتقى. وصدّق بالحسنى. فسنيسره لليُسرى﴾[٢].

هكذا يكون للأبرار من الخيرات نصيب ويصبح الرب للعبد نصيراً. وهو القائل:

﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسراً﴾[٣].

ألمح على شجرة التقوى ثماراً أخرى دعني أصفها لك:

الثمرة الحادية عشرة: إنما هي ثمرة المعرفة، ثمرة تأخذ بيدك إلى درب الرشاد وكأنها يد بيضاء، وتحذرك المعامع والمطبات.

لاقيت من الفكر جفاء كثيراً ومن المشاعر خطأ وفيراً ولكن إن ننظر ما كان لك من ربك فلا تجدن إلّا وفاء وخيراً.

يقول تعالىٰ:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾[٤].

باجتيازك هذه المحطة تشتد المسالك ضيقاً والمعابر حلكة. إستضيء لدربك من الحبيب نوراً وقدّم له على هدايتك لهذا النهج

---

١ ـ سورة طه، الآية ١٢٤.

٢ ـ سورة الليل، الآيات ٥ ـ ٧.

٣ ـ سورة الطلاق، الآية ٤.

٤ ـ سورة الانفال، الآية ٢٩.

حمداً. فإنه هو منور قلبك بمصابيح فرقانه، وجاعلك مميزاً ينابيع الهناء عن براكين الشقاء بسناه. هكذا يهتدي قلبك بمفتاح هداه:

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾[١].

ولكن سناه لا ينير القلوب العمياء؟ فالنور لا ينفذ إلى الحجر:

﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾[٢].

التقوى تزيل اللجج الظلماء كما يذهب القمر بحلكة العالم فيضيئه ويزيده بهاء. وأنت تعلم أن القمر يبلغ ذروة جماله في الليلة الرابعة عشرة من الشهر. دعنا نزيد ثمارنا الإثنتي عشرة ثمرتين لنبلغ العدد اربعة عشر فنجعل قمر التقوى في قمة ضيائه للسالكين:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[٣].

فالنفس توسوس والشيطان يتربص والخيال يعبث والحزن يؤلم وينغص. المسرات في هذا المسلك قلة والمطبات كثرة. وهو الرؤوف الرحيم يزف البشرى بأنك متخلص من كل هذه الآفات بالتقوى.

فهذه التقوى هي عصا موسى سوف تتحول لأعدائك ثعباناً ضارياً ولأصدقائك نهراً جارياً.

قسماً بلطفه أنه لا يتخلىٰ عن عباده في ظروف ضيقهم وأنه لهم عند الاضطرار نصيراً وفي أوان محنتهم أنيساً.

---

١ ـ سروة الزمر، الآية ٢٢.

٢ ـ سورة الزمر، الآية ٢٢.

٣ ـ سورة الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.

بم تفكر؟

فربك هو القائل:

﴿أنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنُخرج به حباً ونباتاً﴾[١].

هكذا تتحرر النباتات من معتقلها:

﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت﴾[٢].

هكذا يشق غلاف الحب والنوى ويخلّص البراعم من أزمتها. وعمّت رحمته الجميع، فهو محول الانسان أطواراً حتى يكتمل بنيانه:

﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً﴾[٣].

وكذلك:

﴿والله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[٤].

إنه يرقب حالك برأفة.. لا يتركك وشأنك في وحدتك ولا يتخلى عنك في شدتك مثلما لم يتخل عن الحب والنوى ولم يتناساك وانت منغمس في ظلمات رحم أمك: ثم إن الإنسان يخيم عليه في أيام حياته هاجس الرزق فينشغل على الدوام بطلب لقمة العيش. لا عليك، فإن عظيم شأن تعهد لك بأن: إلينا أمرك، إنا لواضعون خزانتنا تحت

---

١ ـ سورة النبأ، الآيتان ١٤ و ١٥.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٩٥.

٣ ـ سور غافر، الآية ٦٧.

٤ ـ سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

تصرفك، إحمل منها ما تشاء فهل يبقى للتشوش في نفسك مجال بعد تلقيك التقوى علاجاً.

وهل ترغب في بشرى أعظم من قوله:

﴿يرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

فيا ايها العزيز! مضيفك كريم، صاحب دارك رحيم فوعده حق وهو الرزاق المطلق. فما تبتغي أكثر من هذا؟ التزم التقوى نهجاً لتنال من كل هذا العز حظاً. انصت لأمره وهو يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾[1].

إنها محطة لفي منتهى القيمة، انه الطريق الرئيسي للقاء الله ودار شفاء لكل داء.

﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يـا أولي الألباب﴾[2].

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ١٩٧.

«حكاية سالك ثَمُل في حب الله»

لكي لا أثقل عليك، إصغ إلي آتيك بحكاية سالك ثَمُل في حب الله.

كان للمدن القديمة قلاع وأسوار. حدث في عهد السلطان عباس الصفوي أن واجهت ابنتا السلطان في طريق عودتهما من زيارة لمدينة قم المقدسة، وبصحبتهما أحد المرافقين، امطاراً غزيرة أخرت موعد عودتهما فوصلوا مدينة اصفهان بعد غلق بوابة المدينة فتعذر عليهم دخولها. تنبه المرافق لوجود مدرسة دينية خلف السور بالقرب من البوابة ولم يعد أمامهم من حيلة إلّا اللجوء إلى تلك المدرسة، فبقاء ابنتي السلطان في الصحراء ليلاً يسيء لسمعة السلطان. تم الاتفاق على أن يأووا إلى المدرسة، المرافق من جهة وابنتا السلطان بمعزل عنه، فيبيتوا فيها دون أن يعرّفوا انفسهم لطلبتها.

المرافق استقبل من قبل الطلبة فوراً ولكنهم جميعاً كانوا يأبون استقبال الفتاتين، فالمكان ضيق محدود وإيواء فتاتين أمر مستعاب منفور لا سيما وأنها مدرسة لم تطأها قدم فتاة أو سيدة حتى آنذاك.

الأمطار واصلت هطولها بغزارة شديدة. عمّ الخوف وجود الفتاتين.

تنبه أحد الطلبة لحالهما فقال في نفسه: سوف تتعرض حياة هاتين الفتاتين الغريبتين للخطر إن لم يتم ايواؤهما الليلة.

فتح باب حجرته وبسط فراشه البسيط: هذا ما لدي من سرير وذاك الجبن والخبز طعامي اليسير. تناولا لقيمات صغيرة وأخلدا إلى غفوة هنيئة. فأنا سأقضي الليلة أطالع دروسي وإن طلبت النوم فلي في عباءتي من البرد وقاية كافية.

توسدت الفتاتان في فراش طالب علم فقير ولم تصيبا شبعاً من طعام. فأنّىٰ لأهل القصور المشيدة أن يتكيفوا للإقامة في الأكواخ المتداعية؟!

صارت الخربة مأوى والزهيد من الجبن والخبز طعاماً والنفس تعاني في قبضة الشهوة أسراً.

فأنى للفتاتين أن ترتضيا هذه الخربة ولم تعهدا في مثلها راحة. المبيت وضيع والبال بين آلاف الهواجس أسير. ماذا سيكون أمر الفتاتين مع ابيهما السلطان في الغد القريب؟! كلها منغصات تكالبت في كوابيس قضت مضجعهما. الطالب يدير ظهره إليهما. الكتاب له أنيس والشمع سراجه المضيء.

عند السحر همست إحدى الأخوات تقول لأختها مستوحشة. انظري ماذا يفعل هذا الشاب؟ اختلست الأخت النظرات فرأته واضعاً يده على الشمع يشوي اصبعه حتى تصاعد الدخان من الاصبع.

زادت فعلته من هلعهما وكيف يكون لهما إلى الهدوء سبيل وقد خيّل اليهما أنه ساحر ماكر. ربما يريد أن يسحرهما.

ولما القيتا النظرة إليه مرة أخرى في الصباح، وجدوا إصبع الشاب محروقاً.

وما أن فتحت البوابة لم يعد هنالك من مبرر للبقاء فدخلتا المدينة مع المرافق.

ولمبلغ ما كان قد أصاب السلطان من قلق لتأخرهم بدأ العتاب. فقصَّ عليه المرافق الحكاية.

وبكشف الفتاتين عما جرى لهما وعن سحر الشاب، استغرق السلطان فيالتفكير ثم قال: في المشهد سر لابد أن أكشفه.

ولما دعاه إليه وجده طالباً هزيلاً محروق الإصبع، رث الثياب، يلتف بعباءة بالية.

سأله عن تحصيله واساتذته، عن أوضاع المدرسة وأحوالها ثم قال: وإصبعك ايها الشيخ؟! ماذا أصابه؟

رد الشاب: سلطاناه! احترق ليلة البارحة.

ـ وكيف؟

ـ ايها السلطان! الحرق حرق، لا حاجة له بالإيضاح.

ولما ألح عليه السلطان بالسؤال، أوضح قائلاً: ليلة البارحة أوت فتاتان إلى المدرسة والبرد كان قارصاً بقساوة والأمطار تهطل بغزارة وللأصدقاء عقل يتحكم وأنا في جنون لا يُلْجَم. فتحت باب حجرتي

وآويتهما ولكن وا أسفاه فقد غلبني الشيطان مع انتصاف الليل. الجميع نيام والشمع يقطر مدمعه بانتظام وللميزاب مع الخرير هيام والفكر قد تجرد عن كل اضطراب لاجم والشهوة للنفس اخطبوط غاشم.

في الواقع، لم أكن قد عرفت نفسي على حقيقتها حتى آنذاك وكيف تقبض بقبضة حديدية على قواي الهزيلة. قضيت ساعات والقلب يتقلقل بين الوساوس. بم أحدثك ايها السلطان. الانحراف أخذ يعزف أنغاماً شجية وأنا منشغل مع نفسي في معركة ضارية. وضعت اصبعي على الشمع مخاطباً نفسي أن ذوقي لذة النار! كابدت الألم لساعة متحملاً المعاناة. ولما سكن عني الألم قليلاً استأنفت النفس عزفها على نفس الوتيرة تبث بالوساوس المريرة.

ولكنني إلى ضراوة النار ألجأتها، وبهذا أحسنتُ تأديبها وقوّمتُ سجاياها.

فتح السلطان ضماد الإصبع بنفسه فكشف عن حاله فعقدة الاصبع الأولى انسلخ لحمها تماماً. اكتظت عيناه بالدموع ثم دعا إليه ابنتيه وزوّجه إحداهما ملحّاً وجعله لنفسه صهراً. هذه حكاية من لقب فيما بعد بـ «الميرداماد» الذي لمع نجمه في عهده ساطعاً في سماء المعرفة والعلم والتقوى.

قال تعالى:

﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾[1].

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٣٢.

«النية والإخلاص»

القاتل وسيلته السكين والجرَّاح كذلك. الأول هدفه القَتْلة الغـادرة والثاني الخدمة السافرة وإن كان كلاهما قطع أوصالاً وأراق دماً وأتى بما كان لفعل الآخر شبهاً.

فلا عتب على طبيب يصف سماً لعلاج مرضى بينما فيه ذنب عظيم لمن يسقيه ايذاءً ولؤماً.

أَوَ تعلم أن للأعمال جميعاً نواياها إلاّ مـا خـرج مـنها عـن إرادة الإنسان مثل رعشة يد المرضى أو نبض القلب في الإنسان المعافى. إذاً، جميع الأعمال الإرادية تتضمن أولاً إضمار النوايا ثم الحركة، فلا يذهبن تصورك إلى أن النوايا تتحدد بالصلاة وبالصوم بل ليس هنالك عمل لا يستبطن نية.

الآن وقد أدركت حقيقة النية. أمعن التفكير فيها فكيف تنعقد؟ وما هو منشأها وهكذا مبتغاها؟ فأنت تذوق في العاقبة ثمرة النـوايـا لا ثمرة الأفعال.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«قال النبي صلى الله عليه وآله: نية المؤمن خير من عمله».

ومرد ذلك هو أن نوايا الخير لا يحددها إطار ومقدار وهكذا نوايا الشر. فاللئيم والبخيل يريدان أن يكون الجميع فقراء. فما هي حيلتهم لتحقيق ذلك؟ والكريم يريد العزة والنعمة للجميع، وماذا عساه أن يفعل في هذا السياق؟!

فالخير اللا محدود مضمر في نية المؤمن والشر المطلق هو مطلوب وغاية الكافر.

الأعمال والأفعال قد تعكر صفوها آفات مثل: الرياء والنقص وفوات الأوان وفقدان الوسائل ولكن النوايا لا يشوبها آفة ولا نقص.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إن العبد الفقير ليقول: يا رب ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير، فإذا علم الله عز وجل ذلك منه بصدق نية كتب الله له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله. إن الله واسع كريم».

هل تعلم أنه يحدث في يوم الحساب ان تتفتح سجلات فينكر العبد أن يكون هو صاحب السجل لأنه لم ير من نفسه مثل هذه الأعمال فينبأ بأنها جزاء نواياه.

وقد يكون نصيب بعض النوايا أن تخلد ويتواصل أثرها. من هنا ينال المؤمن والكافر على حد سواء ثواب أو عقاب متواصل أزلي.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كـانت فـي الدنـيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً وإنما خلد أهل الجـنة فـي الجـنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً. فبالنيات خُلد هؤلاء وهؤلاء. ثم تلا ﷺ قوله تعالى:

﴿قُل كل يعمل على شاكلته﴾.

قال: على نيته».

هل أنت راغب في نعمة سرمدية وسعادة أبدية؟ أخلص نواياك له ونَقِّها. توجه إليه وصب أعمالك وأقوالك كلها في قالب رضاه لتستدرج النعم إليك.

قال تعالى:

﴿ومن يُسلم وجهه إلىٰ الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ وإلى الله عاقبة الأمور﴾[١].

وما دمت عقدت العزم لنيل السعادة أريدك أن تتوجه إليه وتـهتف بلسان قلبك:

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ومـا أنـا مـن المشركين﴾[٢].

**

---

١ ـ سورة لقمان، الآية ٢٢.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٩.

سئل رسول الله ﷺ عمن سلك طريق الجهاد طلباً للغنائم فقال بأن الأعمال بالنيات والمرء يبلغ مطلبه سواء كان لدنياه أو لأخراه.

فيا أيها العزيز السالك إلى الله!

ركز في الحديث الآنف واجعله مرآة نواياك فإن كنت طالباً للدنيا، إذاً، أخلد إلى الارض، وإن كان كل ما يصدر عنك إنما هو لخوفك من نار جهنم فانك متحرر منها وإن كان حباً في الجنة فإنها لك. أما النفس المتقربة إلى الله فإنها مقربة إليه فيناديها ربها: ﴿فادخلي في جنتي﴾.

ففعلك لله طلباً لرضاه يستدعي معرفة، آمل أن تكون حائزاً عليها.

فأنت إن أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وذكرت بعض الأحاديث والآيات في هذا الخصوص، حباً في التظاهر، أو أحنيت رأسك وأنت تسير في الطريق بخطى وئيدة لينسبوك إلى الخاشعين أو تحسن إلى هذا وذاك لتتلبس بلباس المحسنين وتنعت بهذه الصفة أو تتعبد بين الناس وفي خلواتك بنحوين مختلفين فاعلم انك تلوثت بجرثومة المشركين.

اشدد حزام الهمة لعلاج نفسك فلا شيء يؤثرن في العبادة إلّا النوايا.

حتى أنك لو أديت عملاً بنية لاتمت إلى الواقع بصلة فإنك سوف تجني ثمار ما توقعته منه.

استمع إليّ لتتوثق من صدق مقالي:

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«من بلغه ثواب من الله على عمل فعمل ذلك العمل التماس ذلك

الثواب أوتيه، وإن لم يكن الحديث كما بلغه».

أما سمعت قول النبي ابراهيم عليه السلام وهو يتضرع إلى ربه:

﴿ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾[١].

سئل الإمام الصادق عليه السلام عمن هو صاحب القلب السليم، فقال:

«صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأن سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله تعالى في الأمور كلها».

فاستعذ بالله من القلب المريض وهو القلب الذي يعمل حساباً لغير الله في أموره:

﴿وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾[٢].

إياك ان تطلق العنان لجوارحك أثناء العبادة فتنشغل اذناك بكل صدى يتناهىٰ اليهما، وعيناك بما تبصران وقلبك بأمانيك وطموحاتك. فما جدوى لقلقة لسانك بذكر الله ها هنا وقد غبت بكل وجودك في مكان آخر.

يقول الإمام علي عليه السلام:

«طوبىٰ لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بماترى عيناه. ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي

---

١ ـ سورة الشعراء، الآيات ٨٨ ـ ٨٩.

٢ ـ سورة البينة، الآية ٥.

غيره»[١].

وخلاصة القول هو أن العبد المخلص من أحب الله ووثّق ارتباطه به فصار ينظر إليه عند الشدائد، ويذكره في محادثاته، ويطلب رضاه في أعماله، ويدعو الجميع إلى مأدبة مولاه ويحثهم للسير إليه لأنه يعلم أنه هو المبدأ وإليه المآب فهو المعيد.

١ ـ الكافي، المجلد ٢، ص ١٦، باب الاخلاص.

«معنى الاخلاص»

لكي لا أثقل عليك أمهلني آتيك بـحكاية، فـي الاخـلاص، عـن سلطان الولاية:

ذات يوم طلب الإمام علي عليه السلام منازلة عمرو وهو شاب ضـرغام. وللشاب كما تعلم طموح إلى الشهرة والمعروفية ولكنه لم يكن كذلك بل له سجية أخرى، يحدثك عنها الشاعر مولوي:

از عــليآموز اخـلاص عـمل   شير حق را دان منزه از دغل[1]

لم يكن بين المسلمين من يجرُؤ على مقارعة عمرو. فكان علي عليه السلام هو الوحيد الذي تقدم لمثل هذه البادرة. فقد كان عمرو حوتاً لا طاقة لأي بطل باسل على مقارعته ولكنه سقط أرضاً في أول دفعة تحامل فيها عليه الإمام علي عليه السلام فجلس عليه السلام على صدره فكان من عمرو ما

---

١ ـ معناه:

ـ «خذ عن علي درس الإخلاص في العمل، ونزه ليث الحق من المكر والحيل».

يهز له العرش:

اوخــدو انــداخت بــر روى عــلي

افـــتخار هــر نــبي وهــر ولي

او خدو انداخت بر رويى كـه مـاه

سجده آرد پيش او در سجده‌گاه[١]

كان علي يهم بقتله ولكنه تريث عند هذه الصلافة. مـاذا تـقتضي الحكمة؟ في الظروف العادية لابد من التعجيل بالقتل ولا يفعل غير هذا أي شخص آخر، إلّا أنه:

در زمان انداخت شمشيرآن علي

كــرد او انــدر غـزايش كـاهلى

گشت حيران آن مبارز زين عمل

از نمودن عفو ورحم بى محل[٢]

كان الصيد في يد علي فتركه وعمرو مبهور مما فعل فخاطبه:

---

١ ـ أشعار هذا الموضوع كلها للشاعر مولوي. ومعنى هذين البيتين:

ـ «إنه بصق في وجه علي، وهو فخر كل نبي وكل وصي».

ـ «إنه بصق في وجه من، يسجد له القمر في كل حين وزمن».

٢ ـ معناهما:

ـ «وفي مثل هذا الموقع ألقى السيف، كأن في حكمه تسويف!».

ـ «احتار ذلك المناوىء مِن عمله، مِن إبدائه العفو في غير محله».

گفت بر من تيغ تيز افراشتى از چه افكندي مرا بگذاشتى[١].

الكل يرقبون المشهد. لِمَ أضاع علي الفرصة المتاحة والفخر المبذول له. عمَّ المسلمين غضبٌ مشوبٌ بالخوف والهلع. الجميع يتساءلون: لِمَ تركه وكان يتربع على صدره؟

تيغ حلمت جان ما را چاك كرد
آب علمت خاك ما را پاك كرد
راز بگشا اى على مرتضى
اى پس از سور القضا حسن القضا
چون تو بابى آن مدينة علم را
چون شعاعى آفتاب حلم را
باز باش اى باب هر جوياى باب
تارسند از تو قشور اندر لباب
باز باش اى باب رحمت تا أبد
بارگاه ماله كفواً أحد
در محل قهر اين رحمت ز چيست؟
اژدها را دست دادن كار كيست[٢].

---

١ ـ معناه:

ـ «سلطت عليّ سيفاً قاطعاً، فلِمَ ألقيته وكنت لي تاركاً».

٢ ـ معناها:

واما تساءل عمرو جاءه الرد فاسمعه: تعمق في نباهة علي عليه السلام في ذلك المشهد لتفهم معنى الإخلاص في الايمان: هنالك عنفوان الشباب وصخبه، الافتخار المحرز، المعسكران يترقبان نتيجة فعله. ولكنه ترك كل هذا ليواصل النظر في أمر ربه بنظرة لا يرى من خلالها في خضم ذلك المشهد المثير إلّا ربه.

چون در آمد علتی اندر غزا تيغ را ديدم نهان كردن سزا
چون خدو انداختی در روی من نفس جنبيد و تبه شد خوی من
نيم بهر حق شد و نيمی هوی شركت اندكار حق نبود روا[1]

هذه هي حقيقة الإخلاص النقي الذي لا يشوبه شرك.

← ـ «سيف حلمك أزهق أرواحنا، ورشحات علمك أزالت الغبار عن وجودنا».
ـ «اكشف السر يا علي المرتضى، يا من انت بعد سوء القضاء حسن القضاء».
ـ «انت باب لمدينة العلم، انت شعاع شمس الحلم».
ـ «اكشف يا باب كل من يتقصى باباً، فبك يبلغ هؤلاء القشور لباباً».
ـ «اكشف يا باب الرحمة إلى الأبد، عن حضرة من ليس له كفواً أحد».
ـ «لِمَ هذه الرحمة في أوان الخصام، إفلات الثعبان حكم من؟».

١ ـ معناها:
ـ «عندما ظهر طارىء عند تحاملي، وجدت من الأليق أن ارفع شفرتي».
ـ «بصقتَ في وجهي، فاهتزت نفسي وتجرد عني طبعي».
ـ «صار نصفي للحق ونصفي للهوى، والإسهام في شؤون الحق أمر لا يليق ولا يُرتجىٰ».

ايها العزيز! إن نلت التوفيق لأداء أي عمل تأتي به خالصاً لوجه الله فأنت أفضل عباده وعملك لمرضاته أفضل ما يكون. استمع إلى حديث القرآن:

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾[١].

ولما كنت طالباً رضا الله لا يهمك عرض أعمالك على خلقه ولا تبغِ نيل الإطراء والمحمدة منهم، فأدِ أعمالك خفية حتى المقدور. هذا هو دين الحق حيث قال عز وجل:

﴿ألا لله الدين الخالص﴾[٢].

***

عن حذيفة بن اليمان أنه قال:

«سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص، فقال: سألته عن جبرئيل، فقال: سألته عن الله تعالى، فقال: الإخلاص سرٌ من سرّي أودعه في قلب من أحببته»[٣].

يعرّف أحد العظام الإخلاص بأنه نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. وآخر يعرّفه بأنه أن لا يُشهد الشخص أحداً غير الله على عمله.

١ـ سورة النساء، الآية ١٢٥.

٢ـ سورة الزمر، الآية ٣.

٣ـ المستدرك، المجلد ١، ص ١٠١، باب وجوب الاخلاص.

ليس أمام الناس من سبيل إلى الفلاح إلّا الإخلاص في النوايا والأفعال. ألم تسمع قول الحق:

﴿إلّا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾[١].

طوبى لمن لا يرى سوى الله ولا يقصد إلّا دياره ولا يبتغي شراء إلّا من متاعه ولا وصالاً إلّا معه. إنهم المخلصون الأتقياء الأصفياء. ألم تقرأ وصف الانبياء: يعقوب وابراهيم واسحاق عليهم السلام في الآية:

﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾[٢].

فمدبر الشؤون هو. وماذا عسى الناس أن يفعلوا؟! فالممكنات في منتهى الحاجة. لا تتقصَ إلّا الواجب. هكذا ترى الممكنات هي الأخرى تقصدك.

في حديث له يؤكد الامام الصادق عليه السلام أن العبد إذا أخلص نيته لله وحسُنت أعماله لا تمر عليه إلّا أيام فيظهر الله حسنه للخلق. واما من لم يخلص نيته لله لا تمر عليه أيام إلّا يكشف الله بعدها سوءه.

فأنت إن كنت طالباً قربه في عباداتك، فلا تعمل حساباً لغيره ولا تمضِ إلّا في جادته. أذكر شاباً والهاً كان لا يزال واقفاً يحرس دار الحبيب يحملق في بابها حتى أنه لا يرى أحداً غيره. قلت له يوماً: وإلى متى تجلس إلى هذا الباب؟

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٤٦.

٢ ـ سورة ص، الآية ٤٦.

قال: بين حين وآخر ينفتح الباب وبين دفعة وأخرى يطل هو منه. من هنا لا أزال أعلق أملي على هذا الباب.

فيا أيها العزيز! علق آمالك على هذا الباب فقد نصحنا رسول الله ﷺ أن نطرق الباب حتى يطل علينا منه الحبيب.

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[1].

إذاً، لا تترك بابه فإن لم ينفتح اليوم فإنه سيفتح غداً لا محالة.

قال رسول الله ﷺ:

«أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه وباشرها بجسده، وتفرغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يُسر».

ومن الإخلاص أن لا تنظر في عملك بل في حبيبك وأن لا تؤديه طامعاً في أجره بل شاكراً ربك التوفيق إليه.

ان الشيخ الانصاري (ره) كان يرى أن الاخلاص ثمرة المحبة ونتيجة العبادة ومن يرتدي ثوب الاخلاص فان أي عمل يصدر عنه يؤديه من قلبه ونفسه. فمحبة الحق (بحسب قوله) لا تجمعها الآمال المتشتتة. ومن واجبات الجسم الصلاة والصوم. ومن واجب القلب محبة الحق. ومن مؤشرات حب الحق أن يتقبل المحب كل ما أتاه من الحبيب.

إضرب وتد هذا الإخلاص عميقاً في قلبك منذ بداية الطريق، لئلا ينقضي العمر فتفتح أبواب قلبك فلا تجد أياً من أعمالك التي أديتها

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

على مر حياتك يستقر في ميزان الإخلاص. ولتزداد معرفة تعمق في الحديث:

«الإخلاص بجميع حواصل الأعمال وهو معنى مفتاحه القبول وتوقيعه الرضا، فمن تقبل الله منه ورضي عنه فهو المخلص، وان قل عمله، ومن لا يتقبل منه فليس بمخلص وإن كثر عمله اعتباراً بآدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة.

وعلامة القبول وجود الاستقامة ببذل كل المحاب مع إصابة علم كل حركة وسكون، والمخلص ذائب روحه باذل مهجته في تقويم ما به، العلم والأعمال والعامل والمعمول بالعمل لأنه إذا أدرك ذلك فقد أدرك الكل، وإذا فاته ذلك فاته الكل وهو تصفية معاني التنزيه في التوحيد كما قال الأول، هلك العاملون إلّا العابدون وهلك العابدون إلّا العالمون وهلك العالمون إلّا الصادقون وهلك الصادقون إلّا المخلصون وهلك المخلصون الا المتقون وهلك المتقون إلّا الموقنون وإن الموقنين لعلى خلق عظيم».

قال تعالىٰ:

﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾.

وأدنى حد الإخلاص بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعمله عند الله قدراً فيوجب به على ربه مكافأة لعلمه لعمله، أنه لو طالبه بوفاء حق العبودية لعجز، وأدنى مقام المخلص في الدنيا السلامة من جميع الآثام

وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة»[١].

واعلم ان للإخلاص في النوايا مردودات ورشحات في وجـودك وإن لم تكن فعالاً، وعدم إخلاصك في نواياك ليثقلنك بالأعباء وإن لم تكن لك طاقة على تحمل الأعباء.

هذ هو أساس العمل وقانونه فحذارِ من أن تشيد بناء شاهقاً ينهار سريعاً لفقدانه أساساً يناسبه فتجد العمر قد انـقضى، والثـروة أفـنيت والعناء لم يثمر لك الثراء وأمامك طريق لم تدخر له زاداً وغـذاء. إذاً، تأمل في عاقبة أمورك منذ الآن.

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب السادس عشر.

«كسب الحلال»

يأتي بعد مرتبة الإخلاص في النيات من حيث مـرتبات التـنامي والعروج، كسب الحلال. فإنك حتى لو واظبت على أداء جميع أنواع العبادات والحرام يدخل في كسبك وطعامك تكون كمن ينمّي روضة أزهار يسقيها ماء شديد الملوحة. ففي كلتا الحالتين تـظهر عـلامات النمو على جانب ومظاهر الفناء على جانب آخر.

تتجلىٰ هذه الآفة في فريضة الصلاة بوضوح أكبر، قياساً إلى غيرها من العبادات. فأداؤها متعذر في مسكن مغتصب أو بألبسـة أو عـلى مفروشات مغتصبة.

وهكذا جميع العبادات. فمن خواص لقمة الحرام أنها تسلب القلوب نورها وتعتمها وتوصد أبواب السماء في وجه المتلوث بها. فقد قـال سبحانه وتعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه

تعبدون﴾[١].

المقصود من الطيبات في هذه الآية هو الرزق الحلال. فغذاؤك يتحول في جسمك إلى دم يدخل جميع خلايا بدنك واعضائه. فهل تعلم ما يفعله الحرام في وجودك كله؟ تكون قد حشدت السموم في مزرعة بدنك بدلاً من الغذاء! وهل تعلم ما تجنيه من ذلك:

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خَبُثَ لا يخرج إلّا نكداً﴾[٢].

فالأرض السبخة هي قلبك ونفسك اللذان نميتهما من حرام ومزجتهما بالخبيث. طوبى لمن انكب منذ بداية شبابه على طلب الحلال، فانتشال النفس وتخليصها من متاهات استرزاق الحرام امر صعب وعسير للغاية.

فأنت أيها القارىء العزيز إن كنت في مستهل شبابك حذارِ من أن تتقدم خطوة إلى الأمام في طلب الحرام وان كنت وقعت في مثل هذا، فشمّر عن ساعد همة عالية ليكن لك منه خلاص فتختار مهنة أخرى وتنجو بنفسك. إنها خطوة تعتبر بحد ذاتها من أعظم عبادات عباده الكرام.

يقول رسول الله ﷺ:

«طلب الحلال جهاد».

إياك أن تقول: ما أكثر من مضوا نحو الرزق في مثل هذا الطريق. فلا

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٧٢.

٢ ـ سورة الأعراف، الآية ٥٨.

تكونن الكثرة دليلاً مشجعاً بالنسبة لك، فقد قال تعالى:

﴿قُل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾[١].

فكسب الحلال فريضة عليك، كما الصلاة والصوم، طالما أنت بحاجة إلى دفع تكاليف معيشتك لكي لا تغدو كلاً على غيرك، وهو عبادة من عبادات ربك.

يقول النبي محمد ﷺ:

«طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة».

أي: بعد فراغك من فريضة الصلاة توجه إلى كسب الحلال.

قد يفكر بعض السذج في اكتساب الحرام وإنفاق واردهم منه في خدمة خلق الله فيعفو الله بذلك عن حرمة مكسبهم في غفلة من أن الله لا يتقبل إلّا الحلال:

﴿يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم﴾[٢].

فيا أيها العزيز! إعلم انك اثناء طلب الرزق تخوض غمار إحدى حالات ثلاث لا رابع لها: الحلال أو الحرام أو الشبهة.

اتضح لنا وضع الرزق إن كان من حرام أو حلال فحكم الله فيهما بيّن صريح. أما الشبهة فهي ما اشتبه عليك أمره من المال وكيف تم اكتسابه وما هو حكم الله فيه؟

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ١٠٠.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٢٦٧.

ولَتعلمن أن بعض الزهاد زهدت نفوسهم حتى عن الحلال، لأنه إن تجاوز حد قضاء الحاجة يثير في النفوس حب الدنيا ويزيد الإنسان تعلقاً بها وهو ما يوصف في العبارة: «أَخلد إلى الأرض».

وما أكثر عظام النفوس الذين نبذوا الشبع من حلال العطاء وحرموا أنفسهم من كثير من النعماء لتقليص تعلقاتها الهوجاء. هذا هو نهج من رغب في العيش زاهداً.

يروى أن أحد أصحاب رسول الله ﷺ أتاه فطلب منه ان يدعو له ان يجعل الله دعاءه مستجاباً فدلّه ﷺ على طريقة تجعل دعاءه مستجاباً وهي كسب الحلال.

وقد ذهب فريق من الزهاد لأكثر من ذلك وأتوا بمنتهى الدقة في اجتناب الحرام.

يقال أن بشراً الحافي الذي حدثتك عنه في البحث الأول، أبىٰ أن يشرب الماء من ترعة شقها سلطان جائر.

ويروي الغزالي أن امرأة ممن التزموا الزهد نهجاً كانت تغزل بمغزل فمرَّ بها طلائع ركب السلطان يحملون أسراجاً فتوقفت عن الغزل، سئلت عن السبب فقالت انها لا تريد ان يكون لنور سراج سلطان جائر دور في غزلها.

أعرف كثيرين ممن تبنوا دقة زائدة لكي لا يدخل خيط من الحرام في نسيج رزقهم. فقد قيل: «في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وفي شبهتها عتاب». ولكن امنع الوسواس عن نفسك، فحري بك أن تعتبر مال كل من يظهر الصلاح على وضعه العام حلالاً إلّا إذا توثقت

من ان مكسبه حرام أو تجده لا يتورع عن الحرام في عمله أو أن يكون عاملاً في خدمة حاكم ظالم.

فأكل السحت (الحرام) على أنواع:

ـ نوع منه يأتي من مثل السرقة والظلم وغبن مال اليتيم وكسب الحرام.

ـ ونوع آخر منه هو أن يكون مما يحرم استهلاكه مثل تناول لحم الخنزير والشراب والذبائح الغير مذبوحة بالتزام الطريقة الشرعية.

ـ عند التواجد في أماكن أُستحوذ عليها غصباً دون رضا أصحابها.

ـ وهكذا التصرف في مال يتعلق به خمس أو زكاة فات موعد دفعهما ولا يضمر صاحبه النية لدفعهما، كل هذه حالات يعتبر دخلها أو أداؤها حراماً.

فيا ايها العزيز! تنبه لتنفذ شريعة محمد ﷺ بحذافيرها، فما طائل مال تكسبه حراماً ثم تدع غيرك ينال وطره منه تمتعاً وأنت تغرم عليه في قبرك قصاصاً. فمعدة الإنسان تسد جوعها كسرة خبز وقد تعهد الله بتأمين رزقها: ﴿هو الرزاق المتين﴾. وكن واثقاً أن من يرتزق الحرام لا يهدف منه الارتزاق بل جمع المال والاكتناز.

فما أكثر الهائنين في حياتهم بحلال زهيد والمعانين على مرها من معاناة واعياء متواصل ومرير إلى جانب حرام كثير.

فما دام أمرك لم يبلغ حالة معقّدة إلتزم بما نوهنا إليه في كسبك وتوخ الدقة فيه. أما عن طعام الآخرين ومتاعهم فإن كان يوحي

بصلاحه فلا تستطلع خبايا حياتهم واعمل حساباً لحليته.

واجتناب المعاشرة والمعاملة مطلوب مع كسبة الحرام إلّا إذا كان من الأرحام فانفذ إليه وانصحه، فإن لم يستنصح فحدد معاشرتك معه بما لا يكون فيه قطع الأرحام وتناول من طعامهم حيث لقيتهم ولكن مقداراً زهيداً تزيل به هواجسهم ثم احسِب ثمن ما تناولته من طعام حرام وادفع ثمنه للفقراء رداً للمظالم.

وعمن يحجم عن دفع خمس ماله الفائض، إدفع خمس ثمن ما استهلكته عنده وتجنب أداء الصلاة في داره وممتلكاته تحاشياً لدخول الحرام إلى ما ينمىٰ عليه بدنك بلحمه ودمه فأنت تعرف أن لا طاقة لك على التلظي بالنار.

وابذل منتهى الدقة والحيطة فيما يخص مال اليتيم فقد قال سبحانه تعالى:

﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾[1].

يروىٰ أن أحد الأتقياء كان يجلس إلى سرير مريض يحتضر ولما قضى منيته عاجل بإطفاء المصباح. سئل عن السبب، فأجاب بأن تكلفة هذا المصباح تدفع مما يعود منذ اللحظة للأيتام فلم استجيز ذلك.

بلى، هكذا يغدو الصراط أضيق من الشعرة وأكثر حدة من السيف.

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٠.

«اختيار المرشد والأسوة»

هل تعلم أن كل ما تعلمته حتى الآن يعود فضله لاستاذك ومرشدك، فقلما يبلغ أحد مقاماً محموداً مستغنياً عن دور الاستاذ. هذا ما لا يتحدد بالعلوم بل يصدق في الفنون وحتى في مجال المهن أيضاً. إنك تتعلم الخط من الخطاط والنِجارة من النجار والسياقة من السائق.

كل ما نعرضه في هذا السياق إنما هو من مظاهر النمو والتسامي في عالم الظاهر. فكيف يكون لك أن تمضي الدرب في عالم الباطن والسير إلى الله دون دليل ومرشد.

أيها العزيز! التقليد في الشؤون الشرعية فريضة أوجبت عليك. فأنت إن كنت تتخلىٰ عن التقليد والمُقلَد لا تهتدي السبيل. والشرع هو السبيل لإصلاح أمر الظاهر حيث لا ينبغي لك تخطيه حتى نهاية عمرك. فأنىٰ لك أن تسلك في عالم الباطن دون الاهتداء بالقدوة الصالحة؟

إنك تعرف دون شك اناساً يحسنون فهم مسائل الطهارة ويميزون

النجاسات جيداً ولا يفوتهم حتى الالتزام بالمد عند قراءة عبارة (ولا الضآلين) ولكنهم يغفلون تماماً عن تلوثات الباطن وطهارته.

ولكي لا أثقل عليك أسمعك طريفة: بعد انتشار الحلقة الأولى من هذه السلسلة (التخلي والتزكي) كنت في مكتبة لبيع الكتب حضرها شخص راح يتصفح الكتاب ثم سأل صاحب المكتبة: هل يعني الكتاب بما في الرسائل العملية من أداب التخلي، إن كان هكذا فالأمر لا يحتاج لكل هذا البحث والدراسة.

أردفت: إنه هو. ولكن أَوَ تعلم أن الرجس والدنس الباطني المعنوي أنتن من التلوثات الجسمية الظاهرية وأكثر تسبباً للعناء واستجلاباً للعذاب والشقاء. فكم من الناس برأيك يميزون تلوثات بواطنهم؟!

دنس النوم يمكن تطهيره بالماء ولكن ما أصعب إزالة شوائب القلب والنفس! فتطهير ذاك الدنس امر يتيسر لكل شخص وصقل هذه الشوائب ليس كذلك. ألم تقرأ قوله تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿ومن يضلل فلن تجدَ له ولياً مرشداً﴾[1].

ربما تقول: بعد إلمامي بأمور الشرع يكفيني عقلي للاهتداء إلى السبيل. كيف لك أن تميز ايحاءات النفس عن أحكام العقل؟ ألم تتنبه أن المنحرف يسلك طريق الانحراف بعقله والضال يتصور نفسه على الطريق الرئيسي إلى مبتغاة.

إنك تسمع نداء يهتف في أعماقك فأنى لك أن تعرف أنه نداء

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ١٧.

الرحمن أو وسواس الشيطان؟ هل هو حكم العقل الاكتسابي أم رسول السداد الرباني؟

انك لتستسلم للطبيب لعله ينجيك من مرضك بعمله وتتجرّع دواء مراً بأمره، وتلتزم الحمية لتعاودك الصحة والسلامة في ظله. فلم لا تسلك مع نفسك الكريمة هكذا؟ فعارف الرب الحبيب يفعل بنفسك ما كان لجسمك من الطبيب.

هل تعلم أن لكل من الأذكار وآيات القرآن وسوره خاصية بالنسبة لنفسك كما لكل من الأدوية في جسمك. قد صنف العلامة المجلسي (رض) بعضها. أما أنت فإنك لا تعلم داءك ولا دواءك.

ألم تلتفت إلى حياة النبي موسىٰ عليه السلام حيث احتجبت عنه الأنوار في قصر الضلال عند فرعون فأخرجه الله منه من خلال حادثة القتل فهدى خطاه إلى حيث كوخ النبي شعيب عليه السلام، فانتقل من قصر فرعون إلى كوخ ما، اهتدى إليه بعنوان ليجد فيه فرصة لنيل الصفاء والتمتع بالوفاء، ولكي يهتدي الدرب الى مبتغاه. وما كان شعيب عليه السلام ليطلب منه الرعي أو يستغله سُخرة، فلماذا استأجره سبعاً من السنين وألقى في ذمته عهداً يلتزم به؟ أنت تعلم أن للمرض دورة وللعلاج دورة. وقد استغرقت دورة مداواة موسى عليه السلام سبع سنوات.

ألم تسمع قوله تعالىٰ:

﴿ومن يضلل الله فماله من ولي من بعده﴾[1].

---

١ ـ سورة الشورى، الآية ٤٤.

واعلم أن المقصود من «الولي» في الآية ليس الأصدقاء الظاهريين وقد تجدهم يسارعون إلى إضلالك، ولكنه «الولي» الذي يأخذ بيدك فيخرجك من الظلمات إلى النور. فمن لم يجعل الله له نصيباً من الفلاح تُرك في الظلمات وإلّا فإن للضالين وفرة من الأصدقاء وكثرة من الأولياء:

﴿إن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾[١].

ولَتعلمن أن الإنسان لا يستغني قط عن القدوة. فإن اهتدى بهدى «قدوة الهية» فما أهنأه! وإن لم يفعل، فإنه سوف يحذو حذو الأبالسة. وما أتعس من اقتيد بسلاسلهم، فحرم نفسه نعمة الهداية. يقول تعالى:

﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾[٢].

ولكي لا تتذرع بأنك لا تعرف قدوة كاملة متكاملة مناسبة أقول لك: لابد أن تتقصاه وتبحث عنه. فقد بشرك الله في الآية:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[٣].

أقول لك: تقصَ على الأقل في بيئتك، في مدينتك واعثر على أكثر من تعرف التزاماً بالتقوى وحظاً من المعرفة. مدّ إليه أواصر الصداقة ولا تستغن عنه وعن الاهتداء به إلّا وقد تقدمت عليه.

وإن عرفت الاسوة المتكاملة فاحنِ له رأس الطاعة واستسلم لنهج

١ ـ سورة الجاثية، الآية ١٩.

٢ ـ سورة النساء، الآية ١١٩.

٣ ـ سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

تربيته. وإلّا فسوف تواجه موقفاً واجـهه النـبي مـوسى وهـو بـرفقة الخضر عليه السلام، ذكرته الآية:

﴿قال هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾[١].

ومن المستحيل أن يتوجه إلى الله شخص ما، وهو صادق في نواياه، دون أن يهديه عز وجل السبيل إلى منازله المصطفاة. وبعد فوزه بهداه لابد له أن يختار إلى لقائه أسوة. فهداه شيء ولقاؤه شيء آخر. فيكون اختيارك لمثل هذا المقام بيده والتوجيه إليه والالتزام بهداه بيدك أنت.

تعمق في الآية:

﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾[٢].

ورغم ذلك فإن الهـدى هـداه والاخـتيار اخـتياره واللـقاء لقـاؤه والأمور كلها تسير بمشيئته.

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ٧٨.

٢ ـ سورة الشورى، الآية ١٣.

«خصائص الأسوة»

إن كنت اهتديت إلى درب الحق فإنك تعرف أن أهل الحق يدعون إلى الحق تعالىٰ، ويحثون الآخرين للاهتداء إليه. هؤلاء هم الجديرون باتخاذهم قدوة وأسوة:

﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمَّن لا يهدّي إلّا أن يهدى﴾[1].

أمّا من يدعو إلى نفسه فإنه قد ضل السبيل فكيف لهم أن يأخذوا بأيدي الآخرين؟

إذاً، من خصائص القدوة أنه يهدي إلى الحق ويدعو إليه. فلنعد إلى القرآن ثانية لنستطلع قوله في مثل هذه الخطوة:

﴿واتبع سبيل من أناب إليّ ثُمَّ إليَّ مرجعكم﴾[2].

ومن جهة أخرىٰ يأمرك أن لا تتخذن الغافل دليلاً ولا تتبعنه فمتىٰ كانت صحوة الغافل على يد أمثاله؟

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٣٥.

٢ ـ سورة لقمان، الاية ١٥.

﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾[١].

واعلم أنك إما أن تسلم قياد نفسك إلى ولي ربك وإما لم تفعل تتركها دون لجام تتخبط في أمرها وأنت لا تميز درب الهدى عن مهاوي الضلال. وتكون ممن يحدثنا ربنا بحكايته في الآية:

﴿ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[٢].

وإن كنت راغباً في استطلاع رأي الإمام الصادق عليه السلام في الاقتداء فإنه يقول:

«ليس الاقتداء إلّا بصحة نسبة الأرواح في الأزل وامتزاج نور الوقت بنور الأزل، وليس الاقتداء بالتوسم بحركات الظاهر والنسب إلى أولياء الدين من الحكماء والأئمة».

قال الله عز وجل: ﴿يوم ندعو كل أُناس بإمامهم﴾ اي من كان اقتدى بمحقٍّ فهو زكي.

وقال الله عز وجل: ﴿فإذا نُفِخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾.

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

فأنت لو تبلغ مرتبة استئناس نفسك بالأبرار فسوف تنجذب إليهم، شئت أم أبيت، أو على أقل تقدير يتعشعش حبهم في قلبك وإن لم تكن

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ٢٨.

٢ ـ سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

بهم متأسياً فقد قال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى ﷺ:

«في القلوب نور لا يضيء إلّا من اتباع الحق وقصد السبيل، وهو من نور الأنبياء مودع في قلوب المؤمنين».

فإن شع هذا النور في ثنايا قلبك سوف تسلك طريق الحق، وتهتدي إلى درب الحقيقة. فادع الله أن يضيء هذا السراج في نفسك، فيتجلى صراطه المستقيم أمامك. في هذا المجال من بحثنا أخبرك ببعض صفات وخصائص العرفاء، كما جاء على لسان أهل بيت العصمة عليهم السلام لتعرف درب الهناء من الشقاء ولتميز المزيف المغشوش من النقي الخالص.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله، لو سهىٰ قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقاً إليه، والعارف أمين وقايع الله وكنز أسراره ومعدن أنواره ودليل رحمته على خلقه، ومطية علومه وميزان فضله وعدله، قد غنى عن الخلق والمراد والدنيا، ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق ولا إشارة ولا نفس إلّا بالله، ومع الله ومن الله فهو في رياض قدسه متردد، ومن لطائف فضله إليه متزود والمعرفة أصل وفرعه الايمان»[١].

ألم تكن تعرف أن ماء الورد يُقطَّر من الورود والثمالة تأتي من الخمر والنبيذ، والشراب يُطلب من السقاء وحانته والمسك من الغزال وسرته، والفراشة تُضرب مثلاً في الوله والواله يشق إلى المحبوب دربه.

١ ـ مصباح الشريعة، الباب الواحد والسبعون.

علم الكلام يتم تحصيله عند المتكلمين والفقه عند الفقهاء والأخلاق من أهله. ومن المسلم به أنك ما دمت تطلب معرفة رب الأرباب ينبغي لك أن تلتحق بالعارف. فأين لك أن تتقصاه وكيف تهتدي إليه؟

يروى أن صاحب الرسالة الإسلامية أوصى صاحب الولاية الإمام علي عليه السلام، قائلاً:

«يا علي! إذا تقرب العباد إلى خالقهم بالبر، فتقرب إليه بالعقل تسبقهم»[1].

فإن كنت راغبا في استزادة الاطلاع على خصائص هؤلاء المتقين دعنا نحل ضيوفاً في رحاب خطبة همام من نهج البلاغة لأترك بدوري هذا الموضوع خشية من إطالة الحديث وإصابتك بالملل:

«... فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع. غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء. ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصَغُر ما دونه في أعينهم...

أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً. يُحزِّنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم..

---

١ ـ مشكاة الانوار، ص ٢٥١، الفصل الثاني في صفة العقل.

وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء. قد بـراهـم الخـوف بَـري القِداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى. وما بالقوم من مرض...

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحِرصاً في علم، وعِلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرُّجاً عن طمع...».

«الولاية»

ايها العزيز! إنك إن ولهت بأحد في عالم الظاهر قد تتقصاه أولاً ممن يدلك عليه فإن كان ماهراً في أداء مهمته يأتيك بصورة له فيتضاعف حبك له كلما أمليت النظر إلى صورته لا سيما إن كانت تُبرز للمحبوب جماله، وتتجلى للعيان منها صفاته. سوف تتعلق سنين وسنين بـتلك الصورة ويزداد لهيب حبك أجيجاً فتقوّي نفس هذه الصورة عزيمتك على طلبه، وترشدك إلى لقياه، فلا سـبيل لوصـال الحـبيب سـواهـا. والماهرون في أداء مهمتهم هم العرفاء المرشدون لك في ظل الولاية. والولاية هي صورة الحبيب التي تدلك إلى طريق لقائه.

ايها العزيز! إنك عندما تنظر إلى صورة المحبوب تشعر كأنك تنظر إليه.

اما ترى صاحب الإمامة الحقة، يصف نفسه في دعاء شـهر رجب المبارك، قائلاً:

«اسألك بما نطق فيهم من مشيتك فجعلتهم معادن لكلماتك واركاناً

لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك وبينها إلّا أنهم عبادك وخلقك»[١].

وأصحاب القلوب الحية يدركون عظمة ما تستبطنه فقرات هذا الدعاء. أمهلني آتيك بمثال آخر حول تجليات النور فلتجليات النور مراتب، ولا تقوى كل عين على رؤية مرتبتها العليا. فالعين المجزاع تكتسب القدرة على هذه الرؤية بالترويض كمن يقيم في غرفة مضاءة بشدة وبعد برهة يتنبه إلى أن نورها كان من أشعة الشمس فيخرج إلى حيث أشعة الشمس نفسها. وبعد برهة أخرى يقضيها تحت أشعة الشمس تزداد العين قوة على النظر إلى النور فيوجه نظراته إلى الشمس نفسها، ويلتفت إلى أن جميع الأنوار منه هو، خالقها: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾.

واعلم ان النبي موسى عليه‌السلام لما شد حزام العزيمة متمنياً تجلي المحبوب له وثبُت على طلبه، أُمر أن يعتزل الناس ثلاثين يوماً فيترك معاشرة الخلق وسائر التعلقات فيكون منصرفاً إليه وحده ليستأنس بالنور تدريجياً. ولما انقضت الأيام الثلاثون وقرب موعد الوصال وتأججت نار اللهفة في وجوده وهو لا يقوى بعد على تحمل رؤيته أراد له الاستعداد عشرة أخرى:

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين

١ ـ مفاتيح الجنان.

ليلة﴾[1].

يروي أحد أهل بيت العصمة عليهم السلام أن النبي موسىٰ عليه السلام لم يقرب طعاماً ولا شراباً خلال هذه الأيام الأربعين إلّا من مأكل النور ومشربه، ومع كل هذا فإنه سقط مغشياً عليه عندما تجلى له ربه. اسمع الآية:

﴿فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسىٰ صَعِقاً﴾[2].

لم يكن هذا التجلي تجلي النور الجامع بعظمته وجلاله، نور ومنور ينابيع الأنوار جميعاً بل كما أكد نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله أنه كان تجلي نور رجل صالح من أمة محمد صلى الله عليه وآله، حيث أشار إلى سلمان وهو يقول بان ذاك النور كان تجلي نور هذا الرجل.

وهذا بالنسبة لك تجلي النور في الغرفة بادئاً فكيف لك أن تملي النظر إلى أشعة الشمس ثم تنظر إلى الشمس نفسها؟ مهما أحاول تجنب الحديث فيما يدور في موضوع بحثنا الأخير (التجلي) أجدني أنشدّ لا إرادياً إليه، وإلّا فإن العقل يحكم بأن الموعد لم يحن بعد.

أمهلني لأقرأ لك فقرات من الزيارة الجامعة الكبيرة زيادة في ايضاح قضية الولاية:

«يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي ومعدن الرحمة وخزان العلم ومنتهى الحلم وأصول الكرم وقادة الأمم وأولياء النعم وعناصر الأبرار ودعائم الأخيار وساسة العباد

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ١٤٢.

٢ ـ سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

وأركان البلاد وأبواب الايمان وامناء الرحمن وسلالة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خيرة رب العالمين.. محال معرفة الله ومساكن بركة الله ومعادن حكمة الله وحفظة سر الله وحملة كتاب الله... الدعاة إلى الله والأدلاء على مرضاة الله والمستقرين في أمر الله والتامين في محبة الله والمخلصين في توحيد الله والمُظهرين لأمر الله ونهيه.. وأهل الذكر وأولي الأمر وبقية الله وخيرته وحزبه و... المطيعون لله القوامون بأمره العاملون بإرادته الفائزون بكرامته اصطفاكم بعلمه وارتضاكم لغيبه واختاركم لسره واجتباكم بقدرته وأعزكم بهداه وخصكم ببرهانه.. فعظمتم جلاله وأكبرتم شأنه ومجّدتم كرمه وادمتم ذكره ووكّدتم ميثاقه واحكمتم عَقد طاعته.. وبذلتم أنفسكم في مرضاته وصبرتم على ما أصابكم في جنبه.. ومن اعتصم بكم فقد اعتصم بالله انتم الصراط الأقوم وشهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء.. فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق والمقصر في حقكم زاهق والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم وانتم أهله ومَعدِنه وميراث النبوة عندكم..».

إن كنت متأسياً بقدوة في عالم الوجود فَلِمَ أرى منك إلى الخنوع خلوداً؟ فمن يكون بأفضل منهم لك هاد وأي مسلك يرقى على مسلكهم؟

ونحن نمضي في رحلتنا رأيت الملائكة للإنسان تسجد. وأدركت سر نبي يأثم، البشرية في عهد الجاهلية تعاني ومررت ببرهة من عهد رسالة نبينا المصطفى ﷺ في باطنك. إنه هو صاحب الانتفاضة التي قلبت حسابات نفسك وانتشلتك من غياهب الدياجير. فهل لك لأداء

تمام حق شكره طاقة، وللتعبير عن قيمة فعله قدرة؟ لا، لا على الشكر أنت قادر ولا على التعبير. ولكنك مطالب بأجرة إزاء هذا اللطف الالهي وهي أن تبذل حتى المقدور المودة لذوي قربى النبي ﷺ:

﴿قُل لا أسالكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى﴾[1].

كما استودع عندك هذا الحبيب مرشد العالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين أمانة فما هو أسلوبك في رعايتها؟ لقد حددها لك في قوله:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي».

وحجة الله على خلقه لا ترفع من الأرض أبداً فلولا وجوده الشريف لأفنيت الأرض، وبعيداً عن مرفئه تضيع سفينة الوجود الهائمة في متاهات العواصف الناقمة. هذا ما نوه إليه الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث له أكد فيه أن الأرض تنخسف لو تجردت عن الإمام.

ويقول الإمام محمد الباقر عليه السلام أيضاً:

«لو أن الامام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله».

وقد سئل الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام: أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا. فعاد السائل يسأله عما يروى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بأن الأرض «لا تبقى بغير إمام إلّا أن يسخط الله تعالى على أهل الأرض او على العباد فأكد عليه السلام بأنها لا تبقى إذاً لساخت».

إذاً، هم قمم الخلق السامية وأنت إن أردت التأمل في شروق

---

١ ـ سورة الشورىٰ، الآية ٢٣.

الشمس انظر إلى قمم الجبال. وإن تمنيت طلوع نور الله في وجـودك انظر إليهم تنال ما تريد.

قال تعالى:

﴿أوَمَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾[١].

فهذا الميت هو الانسان المتجرد عن الايمان، وتلك الحياة هي فوزه بالايمان، وهذا النور هو إمامك[٢].

فماذا عن الآية:

﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون﴾[٣].

أوتعلم ما هي تلك الحسنة؟ إنها ولايتك: فأمـانك مـن فـزع يـوم الحساب يكون بحب أولياء الله. وعويلك يهتف: «واحسرتاه» يـتأتىٰ من بغضهم وكراهيتهم[٤]. إفهم قوله تعالىٰ:

﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللهُ من فضله﴾[٥].

هذا الفضل هو ما بذله ربك لائمتك وقادتك، والحاسدون حفنة من جهلة الناس[٦].

١ـ سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

٢ـ مقتبس عن حديث للإمام جعفر الصادق (ع).

٣ـ سورة النمل، الآية ٨٩.

٤ـ مقتبس عن حديث للإمام علي بن أبي طالب (ع).

٥ـ سورة النساء، الآية ٥٤.

٦ـ مقتبس عن حديث للإمام الصادق (ع).

قال تعالىٰ:

﴿اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾[١].

انهم هم المعنيون من (أولي الأمر) أيضاً، فإن كنت تريد التوكيد من معرفتهم فاعلم انهم من ذكر ربك اسمهم بعد اسمه واسم نبيه[٢]. هذا ما نقرأه في الآية:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾[٣].

فمن أحرز أتم درجات الايمان وذُكر اسمه بعد اسم الله تعالى ورسوله ﷺ هم أولياء الله وقد صدر الإبلاغ بولايتهم علينا وحكومتهم في حياتنا في هذه الآية[٤].

ففي يوم يتهافت فيه الناس بحثاً عن شفيع فلا يظفرون به ويتقصون سنداً وعوناً فلا يهتدون إليه، تلتجيء إلى صاحب راية سرت خلفها فصار لك مأمناً ومأوى. وبه تحظى بالهدوء والرفاه، فهو الشخص الوحيد الذي يبقىٰ إلى جانبك، لا يفر منك في تلك البرهة الرهيبة.

﴿يوم ندعو كل اناس بإمامهم﴾[٥].

---

١ ـ سورة النساء، الآية ٥٩.

٢ ـ مقتبس عن حديث للامام الصادق (ع).

٣ ـ سورة المائدة، الآية ٥٥.

٤ ـ مقتبس عن حديث للإمام الصادق (ع).

٥ ـ سورة الاسراء، الآية ٧١.

و ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾[1].

وفيما يخص الأمة في عهد الرسالة يكون النبي محمد ﷺ هو الشاهد عليها، وأما الامم اللاحقة فيكون لكل منها رافع للواء الإمامة في زمانها وهو الشاهد عليها. تمهل حتى لا تحرم نفسك منه ويبيض وجهك أمامه حيث يروىٰ أن أعمال أي شخص تعرض على شاهد زمانه في كل يوم جمعة:

يقول الله تعالىٰ:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾[2].

وهذه الأمة الوسط تتألف من إثني عشر شخصاً هم الوسطاء بينك وبين ربك، والشهداء عليك وعلى أعمالك.

إذاً، إجهد أن يكون قلبك سليماً ليشهد لك هؤلاء الشهداء بالسلامة. قدّم لهم تحياتك صباحاً ومساء لتبني بها صرح المعرفة بينك وبينهم لا أن تعمق الهوة بينكم.

ايها الأعزة، نحن عباد حضرة الجليل، نسلك إليه السبيل، القلب عليل والشيطان بالنفس نزيل.

إماماه وجّهنا إليك قلوبنا وائتمناك مصيرنا، نتوسل إلى الله بك ولن نكف عن هذا حتى النهاية على أمل أن نلقىٰ جدك في لحظات احتضارنا فتذهب عنا آلامنا ومآسينا بجمال طلعته البهية.

---

١ ـ سورة النساء، الآية ٤١.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ١٤٣.

أنا بحد ذاتي أفدي نفسي لهذا اللقاء وأضحي بحياتي لهذا البهاء، فأجدني في عالم الأحلام والخيال سابحاً، حول هذا اللقاء متحدثاً، وبهذا الوصال معتزاً وفيه أرتجز شعراً. ما حيلتي ولا أراه إلى جانبي فأتخيله هكذا لأتقصى للنفس هدوءاً.

هل تعلم ماذا يجري على القطيع دون راعيها؟ وعلى السفينة دون ربانها؟ وعلى القافلة دون جمّالها؟

لقد جعل الله لكل قوم هاد، فقال:

﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾[١].

فهادي هذه الأمة هو إمامها. وهل يعقل أن يترك الرحمن هذا القوم دون هاد[٢].

أما أنت فهل بمقدورك التمرد على خليفة الله؟ فكيف لك أن تهتدي إلى مبتغاك دونه؟ ألم تسمع قوله تعالىٰ يُبشرهم بأن يجعلهم خلفاءه في الآية:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾[٣].

ألا تعلم أن هذه الآية نزلت في شأنهم ففي كل عصر تلا رحيل رسول الله ﷺ كان العالم متنوراً بنور أحدهم. فبه يظهر طريق

١ـ سورة الرعد، الآية ٧.

٢ـ مقتبس عن حديث للإمام الصادق (ع).

٣ـ سورة النور، الآية ٥٥.

الهدى[١].

ايها العزيز! وهل يمكنك أن تستقر أمام الشمس وتكون لها والهـاً وتفتح لها نوافذ قلبك منتعشاً ولكن لا تكسب منها نوراً ودفئاً؟ أم كيف يكون بمقدورك أن تدير ظهرك للشمس وتغلق نوافذ قلبك إزاء ضيائها وتسدل الستار عنها وتبقى قابعاً تعاني من البرد والظلام؟ هؤلاء هـم النور الذي انطلق من صدر سيدة نساء العـالمين فـاطمة الزهـراء عليها السلام فانعكس إلى عالم الملك من عالم الملكوت.

استمع إلى الآية:

﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾[٢].

وهكذا إلى كلام القرآن حول الأبرار في الآية:

﴿واتبعوا النور الذي أُنزل معه، اولئك هم المفلحون﴾[٣].

المقصود من هذا النور هو الإمام علي عليه السلام[٤]. هذا مـا يسـتوحىٰ أيضاً من الآية:

﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾[٥].

وهم أنفسهم هذا النور، نور الهدى، وليس للسالك مـن سـبيل إلّا

١ـ مقتبس عن حديث للإمام الصادق (ع).

٢ـ سورة التغابن، الآية ٨.

٣ـ سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٤ـ مقتبس عن حديث للإمام الصادق (ع).

٥ـ سورة الحديد، الآية ٢٨.

الاعتصام بهم والاهتداء إلى الله بهم[١].

أنت إن كنت للنور متقصياً ولذلك بالقرآن الكريم متشبثاً فاعلم أن أوراق هذا الكتاب العظيم لا تختلف نوعياً عن بقية الأوراق والرقيم وهو في ظاهر الأمر لا بذاك الذي ينير لك دنياك ولا يدخر لك معرفة ولكن القرآن روح، ولا حياة للجسم لولا الروح.

هل تعلم فيمن تتمثل روح القرآن؟ روحه الإمام. ألم تسمع بأحداث معركة صفين عندما رفعت المصاحف على الرماح وقرر حفنة من الرجال كف القتال احتراماً للقرآن فنادى فيهم الإمام علي عليه السلام انه هو القرآن الناطق.

فهذا القرآن بلا روحه لا حياة له. ألم تسمع قوله تعالى:

﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾[٢].

ومَن غير هؤلاء لهم أن يُسَمَّوا «أهل العلم» يا ترىٰ؟

تعمق في التفكير حتى آتيك بآية أخرى. وإن كنت سالكاً إلى الله تمهل حتى تنظر ما هو مقامك ومنزلتك في هذا الطريق الرئيسي؟ فالسالكون يصفهم الله تعالى في الآية:

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله﴾[٣].

---

١ ـ مقتبس عن حديث للإمام محمد الباقر (ع).

٢ ـ سورة العنكبوت، الآية ٤٩.

٣ ـ سورة فاطر، الآية ٣٢.

فربان سفينة الحياة بحسب هذه الآية، المتبحرون في معرفة النهج والطريق، المميزون لطريق الهناء عن طريق الشقاء، هم انبياء الله ورسله.

وأما الفريق الذي سبق بقية خلقه في هذا الطريق الائمة الذين وقع عليهم الاختيار من الرب لا بالتصويت الانساني. والعرفاء هم الوسطاء بين أصحاب الولاية واتباعهم حيث يحذون حذوهم خطوة بخطوة في تقصي الطريق وكذلك السلوك إلى الله.

وأما الظالمون أنفسهم فانهم الماضون في حياتهم دون أسوة وإمام، وانقادوا في دربهم لمكفوف لا يقوى على النظر. راجع نفسك لتتنبه من أي الفرق أنت[١].

أنصت إليّ آتيك بكلام آخر، أوتعلم أن جدك آدم عليه السلام أذنب وأقصي عن حضرة القدس الالهي فهبط من السماء الى الأرض وكابد عناء مفارقة حبيبه الغاضب عليه لسنين قضاها مع زوجته باكين حتى دلهما ربهما إلى طريق للتقرب والتوبة، هذا ما تحدثنا به الآية:

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[٢].

هل فكرت حتى الآن: ماذا كانت هذه الكلمات لعلك تلجأ إليها وبها تتقرب إليه وتظفر بقربه؟!

يروي الكليني والعياشي وعلي بن ابراهيم القمي (ره) وحتى مصادر

---

١ ـ مقتبس عن حديث للإمام محمد الباقر (ع).

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٣٧.

أهل السنة باختلاف يسير مع بعضها، أن تلك الكلمات كانت تتضمن القسم بالأنوار الطاهرة التي ظهرت على وجه الأرض من سلالة آدم عليه السلام الذين شاء الله تعالى أن يجعلهم مصابيح الهدى والعروة الوثقى في العالمين وهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء عليهما السلام والحسن والحسين عليهما السلام.

التفت إليّ أحدثك بكلام آخر: تعلم أن النور إذا احتد لمعانه تعجز العين عن تحمل النظر إليه حتى أنها قد تفقد بصرها في بعض الحالات.

وتذكر الروايات أن بينك وبين ربك ألف حجاب فكيف لك أن تقوى على النظر إلى تجلي ذاته متجردة عن حجبها؟

فلا الشمس ينظر إليها إلّا من وراء عازل ولا النور إلّا بعد عدة انكسارات تشهدها اشعاعاته.

وهؤلاء الائمة والقادة الكرماء هم مرآة الأنوار الإلهية فأنت لا تهتدي إلى الله إلّا بالنظر إليهم وقد أرشدك الحق تعالىٰ إلى هذا الطريق في قوله:

﴿اولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾[1].

وهل تتقصى بأفضل من هؤلاء ولاةً لترتدع عن التشبث بهم وتسلك كما يروق لك؟!

إعلم انهم هم السالكون إلى الله وهم الهادون إليه، فاحذُ حذوهم تنجح واسلك دربهم تفلح.

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٥٧.

هل يكفي الولاء بمفرده؟

لتتوثق أن الولاء بمفرده لا يثمر في هدايتك إعلم أن للحب مؤشرات منها تمثّل المحب بالحبيب. فإن أردت تقييم مستوى حبك انظر في مدى تمثلك بالحبيب في عملك وعباداتك ونهجك. فأنّى لك أن تتحدث عن ولائك لهم وأنت تناوئهم في خطاك ليلاً ونهارا؟

الحب سراج القلب وينبوع نوره ودفئه. فإن أُضيء كانت له آثار في عينيك وقلبك ويديك وقدميك وإذا لم تبرز آثاره عندك، تنبه انه عاطل لا خير فيه ولتتوثق مما أقول تعمق في الحديث التالي:

يقول الإمام محمد الباقر ﷷ مخاطباً جابراً:

«يا جابر، أيكتفي من انتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شعيتنا إلّا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلّا بالتواضع والتخشع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والايتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس إلّا من خير. وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء.

قال جابر: فقلت: يا ابن رسول الله! ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة؟

فقال: يا جابر! لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحب علياً وأتولاه، ثم لا يكون مع ذلك فعالاً؟ فلو قال: إني أحب رسول الله، فرسول الله ﷺ خير من علي، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئاً فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته.

يا جابر! والله ما يتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلّا بالطاعة ومعنا براءة من النار ولا على الله لأحد من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو؛ ما تنال ولايتنا إلّا بالعمل والورع».

ونداء آخر أقرأه عليك ايها العزيز من جانب الإمامة والولاية وهو نداء خاص بك أُحتفِظ به لأكثر من ألف سنة ليتم ابلاغك به اتماماً للحجة عليك.

يروي خيثمة أنه عندما زار الإمام محمد الباقر عليه السلام يودعه طلب إليه عليه السلام أن يبلغ محبي أهل البيت عليهم السلام بأنهم لن يكون منهم لهؤلاء المحبين أي عمل أو تدبير عند الله إلّا بأعمالهم أنفسهم، وأن هؤلاء لن يبلغوا حب أهل البيت وولاءَهم إلّا بالورع والتقوى وأن أكثر الناس تحسراً يوم القيامة هو دال الآخرين إلى العدل والانصاف، العامل بخلافه.

إذاً، حذارِ أن يكون لك عن التقوى استغناء إلى جانب ما توليه لهؤلاء العظام من ولاء وأن تترك الطاعة طمعاً في الشفاعة.

«السلطان المخلوع»

ايها العزيز! هل رأيت الأطفال، تارة يتخيلون تربعهم على عـرش السلطان، فللأوامر هم يصدّرون وزمام أمور الحكم يتسلمون ثم ترى، تارة أخرىٰ، أطفال الحي عليه بالضرب ينهالون وللعبة أخرى يبدأون؟ فمَثَل هذه الحيازة على الحكم (وهماً) كـإيمان يـنبع صـيته (زائـفاً)، وحتى لو كان قلبياً فليس للقلب به على الجوارح تـحكماً وربـما لم يكن له وجود أساساً.

أوَ تعلم أن العين لما تبصر الثعابين تنبىء القلب بالشر المـداهـم، وسلطان القلب يعلن النفير العام لأعضاء الجسم كلها أن: إحذروا! لعلمه بفداحة الخطر المتفاقم. وهكذا عندما تبصر العين مالاً وتنبىء القلب به، يوظف سلطان القلب المـتحكم بـجميع أعـضاء الجسـم إن كـان بمقدورها فلتستجلب ذلك المـال فـفيه الربـح لإيـمانه ووثـوقه بـما يكتسب في ظله من راحة وطمأنينة. فما قيمة ما في القلب من علم وايمان وثقة والأعـضاء لتـحذيره لا تـرتدع وبـوعوده وتـوجيهه لا

تسترشد.

فاسمع قول ربك يحدثك أن سلطان مثل هذه القلوب، على الأعضاء، يتحدد بكسب المنافع الدنيوية واتقاء اضرارها حيث يقول تعالى شأنه:

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾[1].

أمهلني آتيك بمثال آخر:

ربما يحدث أن يمشي ربان في شوارع المدينة وقد يكون حاملاً نياطه على كتفيه شاعراً بالزهو، والسفينة تصارع عاصفة ما في لجج البحر وقد يثلم بدنها أو تتسرب المياه إلى داخلها. البحر تأهب لابتلاعها ومن ثم تحطيمها عن قريب. فما طائل هذه السفينة من ربانها في مثل هذه الظروف؟

عقلك هو ربان سفينة جسمك، فإن لم يكن لجسمك من ايمان قلبك وعقلك وقاية من خطر الوقوع في الذنب وعجز عن استمالته نحو الثواب فما فائدة وجودهما بالنسبة لك؟

وربما توقف الايمان على اللسان ولم يتجاوزه إلى القلب أي اقتصر أثره في ألفاظ تنطلق من الفم وتنتشر في الهواء، حيث وصف الله تعالىٰ أصحابها في الآية:

---

١ ـ سورة الحج، الآية ١١.

﴿قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾[١].

ولتتنبه إلى أن الايمان لابد له ان يتحكم بجميع أعضاء جسمك، استمع إليّ:

سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام ان يخبره أي الاعمال أفضل عند الله، فأجابه أنه ما لا يقبل الله عملاً إلّا به؟

فقال: وما ذلك؟

قال: الايمان بالله الذي هو أعلى الأعمال درجة وأسناها حظاً وأشرفها منزلة.

قال: أخبرني عن الايمان أ قول وعمل أم قول بلا عمل؟

قال: الايمان عمل كله. والقول بعض ذلك. العمل يفرض من الله بَيّنَه في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد به الكتاب ويدعو إليه.

قال: صف لي ذلك حتى أفهمه.

فقال: إن الايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل فمنه التام المنتهى تمامه ومنه الناقص المنتهى نقصانه ومنه الزائد الراجح زيادته».

فيا ايها السالك إلى الله! إجهد أن تنجح بتوفيق منه في التحكم باعضاء جسمك برمتها لتحصن نفسك من الهفوات والآثام وتوجهها نحو إعداد «للزاد» و «التحلي» بما يرتضي رب الأنام. فرحيلك إلى عالم القبور بنفس جهول فقيرة إلى الزاد لبمصاب جد فظيع.

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ٤١.

«العبادة، أفضل السبل»

يا زميل رحلتي! الطريق طويل جداً وقد تتعطل سوق التجارة مبكراً وتنقطع بك السبل إلى ينابيع المياه ومظاهر العمران عاجلاً.

إذاً، إظفر بزادك من السوق ما دام ناشطاً، ففي الرحيل دون زاد، عناء جسيم ودون ماء ندم عظيم.

أو تعلم أنه لا لذة للمحب مثل قرب الحبيب ووصاله فإن كنت هكذا فتوكل على الله، باب الدار مفتوح أمامك وحبيب القلب غني يعلم حاجتك إليه، وهو بانتظارك تأتيه ليغدق عليك بالفضل والنعماء من ينابيعه.

ففي رحلة الوصال تمثل كل سجدة خطوة وكل ذكر نداء وحبوة وكل صلاة حاجة وفي الأدعية أسرار مخبأة. الموائد أعدت للمتسولين بسطت والدعوة إليهم وجهت. فإن كنت للدرهم فقيراً فما زال الكسب يسيراً وأنت على الكسب في الفرصة المتاحة قدير. فأنا أخبرتك أن السجدات خطوات إن كنت حقيقة سالكاً تريد الزاد.

﴿واسجد واقترب﴾[١].

لا تخل بنظام هذه الدار فكل أجزاء عالم الوجود تسجد لحضرة العظيم المتعال فأنّى لك ان تخالفهم في ذلك؟!

﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب﴾[٢].

ألا ترغب في الانسجام مع هذه المخلوقات؟ اعلم ان عالم الوجود لن يعزف لك لحناً خاصاً، فالترنيمة التي يتغنى بها العالم بأسره هي ترنيمة الساجدين.

ففي هذه الدار لا يكون بالوصال ظافراً إلّا من كان متعبداً.

قال تعالى:

﴿ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾[٣].

فإن ماطلت في أداء حق عبادة ربك اليوم فما يدريك أن يكون لك غد تتدارك فيه؟!

ايها العزيز! أنجز اليوم عمل اليوم، فلابد أن يكون لكل يوم عمله وثمره فلا تؤجل أعمالك للغد وقد لا تبلغه وإن شهدته فله أعمال

---

١ ـ سورة العلق، الآية ١٩ ـ سجدة واجبة.

٢ ـ سورة الحج، الآية ١٨.

٣ ـ سورة الأعراف، الآية ٢٠٦.

وثمار أخرىٰ.

من هنا يقول رسول الله ﷺ:

«آفة العبادة الفِترة».

والفترة: أي الفتور والخمول.

إحذر النوم والغفلة فقد تصحو بعد فوات الأوان فتجد أجراس الرحيل دقت والركب قد تأهب وليس لك إلى البقاء سبيل.

إن كنت محباً لأهل بيت رسول الله ﷺ تأسى بفعالهم وسلوكهم، بصلاتهم في صلاتك وذكرهم في ذكرك وبجميع أعمالهم في أعمالك وحتى في تحصيلك تقصّ علومهم.

يروي عمرو بن أبي المقدام أنه سمع الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«كنت مع أبي حتى انتهينا إلى القبر والمنبر فإذا أناس من أصحابه. فوقف وقال:

والله إني لأحبكم وأحب ريحكم وأرواحكم، فاعينونا على ذلك بورع واجتهاد. فإنكم لن تنالوا ولايتنا إلّا بالورع والاجتهاد. ومن اسلم بإمام فليعمل بعمله.

ثم قال:

انتم شرطة الله وانتم شيعة الله وانتم السابقون الأولون، والسابقون في الآخرة، إلى الجنة، ضمنّا لكم الجنة بضمان الله عز وجل وضمان رسوله، انتم الطيبون ونساؤكم الطيبات. كل مؤمن صديق وكل مؤمنة حوراء».

واعلم أن هدفك من العبادة لابد أن يتحدد بالضبط فإن كنت عابداً تطمح إلى نهر اللبن ولباس الحرير وظل شجرة طوبى والتمتع بالحور العين فأنت طالب تجارة وإن سجدت لله خوفاً ورهبة من غضبه ونار جهنمه فعبادتك طاعة العبيد ممن يخدمون مولاهم خوفاً منه، وإن كان هدفك من تعبدك التقرب لله وحباً له فعبادتك عبادة الأحرار المحبين»[١].

هنا نذكر ثانية قول رسول الله ﷺ ومصطفاه محمد ﷺ:

«أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه وباشرها بجسده وتفرغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا، على عسر أم على يسر».

فأنت إن أحجمت عن تناول الطعام أياماً سوف تلاحظ اضمحلال قوى يديك وساقيك وعينيك وأذنيك فلا طاقة لأي منها على اداء وظائفها إن أصيبت بالوهن جراء الجوع. أعلمُ أنك أدركت ذلك في خبراتك. والآن فكر ان لروحك أيضاً غداء، غذاؤها العبادة، تنيرها وتمنحها القدرة وتسهل لها المضي والسلوك إلى الحق تعالى. ففوات فرصة العبادة ليس فوتاً بل موتاً للنفس والقلب. ألم تسمع قوله تعالىٰ يخاطب رسول ﷺ في الآية:

---

١ ـ يقول الإمام علي (ع): «ان قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار». (نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٧)

﴿ما أنت بمسمع من في القبور﴾[١].

فالمقصود بهؤلاء الموتى الراقدين في القبور هم الأحياء المتجردون عن العبادة والطاعة، فلا حياة معنوية لهم وهي الحياة الحقيقية التي لا يطمح فيها العُبّاد إلّا لنيل رضاه. انهم يسكنون دياره وقد ثملهم حبه والنظر المستدام إليه وتقصيه المتواصل فهم يريدونه دون سواه. هذه هي مؤشرات عبادتهم وعبوديتهم.

يروي الإمام الصادق عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى أوحىٰ إلى النبي موسى بن عمران عليه السلام أن:

«يا ابن عمران، كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنّه الليل نام عني. أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟ها أنا يا ابن عمران مطلع على أحبائي، إذا جنّهم الليل حوّلت أبصارهم في قلوبهم، ومثّلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور.

يا ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع، وادعني في ظلم الليل، فإنك تجدني قريباً مجيباً».

إذاً، العبادة مطلوبة تلبية لحاجة النفس وديمومة لحياة القلب. فغبار الفناء يتراكم على القلب إن أمضى العبد يومه دون ذكر ربه. فوالله لو كان هؤلاء المتهافتون وراء السعادة يعلمون أن ماء الحياة ينبثق من ينبوع الاستئناس بالحبيب لم يتركوا السكنىٰ في دياره للحظة واحدة. ولو يتنبه ملوك الدنيا كيف يقبع الانسان على عرش السلطان الحقيقي

---

١ ـ سورة فاطر، الآية ٢٢.

لفروا من قصورهم فرار ابراهيم بن ادهم.

وكان مولى الموحدين الإمام علي عليه السلام يقسم انه ما عبد الله خوفاً من النار، ولا تضرع إليه طمعاً في الجنة بل وجده جديراً بالعبادة فعبده.

صار بيناً بالنسبة لك أن الله غني عن عبادتك. وهذا أنت تلزمك الحاجة إلى الخباز والقصاب وبائع الخضار لتنمية جسمك. ولضمان قوى نفسك وروحك لابد لك من المضي إلى دياره وتكبيل جوارحك بسلاسل عبوديته.

أو تعلم انك لو تفر من عبادة «الرحمن» سوف تتهاوى في وادي «الشيطان» فلا سبيل وسط بين هذين النهجين. وأنت نفسك أجبت ربك على استفساره «أَلَستُ» متعهداً بأن لا تعبد الشيطان قط.

يذكرك بذلك بارئك في الآية:

﴿الم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين﴾[1].

فما أتعس من يكتفي بقطف الأشواك في رياض الأزهار ويختار الخنوع للشيطان رافضاً عز «الرحمن».

قال تعالى:

﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[2].

فيما أوصى به رسول الله أبا ذر عبارات إنصت إليّ أنقلها لك نصاً

---

١ ـ سورة يس، الآية ٦٠.

٢ ـ سورة الأنبياء، الآية ٦٧.

عنه لو كنت راغباً في الاستنصاح بكلامه حيث قال بان رسول الله ﷺ قال له:

«اوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله.

قلت: زدني.

قال: عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً.

قلت: زدني.

قال: عليك بطول الصمت.

قلت: زدني.

قال: إياك وكثرة الضحك.

قلت: زدني.

قال: عليك بحب المساكين ومجالستهم.

قلت: زدني.

قال:قل الحق وإن كان مرّاً.

قلت: زدني.

قال: لا تخف في الله لومة لائم.

قلت: زدني.

قال: ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك ولا تجد عليهم فيما تأتي مثله، ثم قال: كفى بالمرء عيباً ان يكون فيه ثلاث خصال: يعرف من الناس ما يجهل من نفسه. ويستحيي لهم مما هو فيه، ويؤذي جليسه فيما لا يعنيه، ثمّ قال: يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخُلق.

ولما صار في علم الإنسان أنه خلق لمعرفة ذات الباري تعالى وليتعبد بإخلاص في حضرته فاينما يوجه وجهه عابداً لسواه ينأى عن ساحة قدسه ويخرج عن جادة سلوكه والطريق إلى تحقيق هدفه، فقد قال تعالى:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾[1].

وفي الآية:

﴿انني انا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني واقم الصلاة لذكري﴾[2]. يقدم نفسه لعباده في إطار حديثه مع نبيه موسىٰ عليه السلام ثم يدعوهم للتقرب منه والإكثار من ذكره والتزلف إليه بالصلاة.

ولكي لا يخيل إليك أن العبادة تتحدد بالسجود والعزلة والذكر والانقطاع عن الخلق، حدثتك في موضوع النية أن كن للنوايا الحسنة مُضمراً ولكسب رضا الله عنك في الحياة هادفاً ولنهج الرؤية الالهية للعالم متبنياً، عندئذ سوف يعتبر رواحك وإيابك، أكلك ونومك واعمالك كلها عبادة.

واجهد لتجعل نواياك خالصة لوجه الله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بان كسب الحلال نصف العبادة وأن الخارج من داره لكسب الرزق له ولزوجته واولاده يكون في عبادة الله حتى يعود إلى داره.

ولتؤمن يا زميل الرحلة بما أتيتك به من كلام استمع بدقة إلى

---

١ ـ سورة الذاريات، الآية ٥٦.

٢ ـ سورة طه، الآية ١٤.

الحديث التالي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«داوم على تخليص المفروضات والسنن فإنهما الأصل، فمن أصابهما وأداهما بحقهما، فقد أصاب الكل. وإن خير العبادة أقربها بالأمن وأخلصها من الآفات وأدومها وإن قل.

فإن سلم لك فرضك وسننك فأنت عابد واحذر أن تطأ بساط ملك إلّا بالذل والافتقار والخشية والتعظيم. واخلص حركاتك من الرياء وسرك من القساوة. فان النبي صلى الله عليه وآله قال: المصلي مناج ربه فاستحيي من المطلع على سرك والعالم بنجواك وما يخفي ضميرك، وكن بحيث يراك لما أراد منك ودعاك إليه»(١).

اجهد أن تشعر بالابتهاج واللهفة أثناء العبادة ولا تنهض إلى العبادات كارهاً متنفراً وأنفاسك تتردد تثاقلاً ولتأمن الملل إلتزم التنوع عند أداء العبادات وكن بينها متنقلاً.

يروي الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله:

«ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تُكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المُنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى».

كما يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«مرّ بي أبي وأنا بالطواف، وأنا حدث. وقد اجتهدت في العبادة، فرآني وأنا أتصاب عرقاً، فقال لي:

يا جعفر! يا بني! ان الله إذا أحب عبداً أدخله الجنة ورضي عنه

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٥٢.

باليسير».

إذاً، واصل أداء كل عبادة على قدر ما تتحمله نفسك وبنحوٍ لا يخلّن بحياتك فإن تخلفت عن إدارة شؤون دنياك ووظائفك فيها تختل حياتك كلها ويؤخذ عليك بنحو آخر.

هكذا هو الحب. فمتى ما اعتلجه القلب ذهب عنه التعب والنصب ويثقل عليه كل عمل سوى ما كان في سبيل مطلوبه وينفر من كل ذكر إلّا ذكره.

«صلاة الخاشعين»

مر بنا أن هذا الطريق لا يمكن سلوكه إلّا في ظل العبودية والعبادة، فليس للعبد إلّا أن يتعبد مولاه. لا أريد بذلك أن أنصحك بإقامة الصلاة فأنت، ولله الحمد، مستغن عن مثل هذا النصح، بل أريد لك أن تعتبر الصلاة من مسلتزمات العبودية أكثر مما هي فريضة إلهية. فأنت مستغرق من أعلى رأسك وحتى أخمص قدميك في حاجة بحتة وهو الغني بالتمام. وأنت تعرف أن هناء الفقير رهن لعطاء الغني.

والفقراء أنواع، فذاك الذي يقول: جائع مسكين أنا. لا شك أنه يهنأ بآلاف النعم مثل سلامة العينين والأذنين، واللسان وبقية أعضاء الجسم. وقس على ذلك المحتاج إلى المسكن أو الزوج أو العلم.

ولكن أخبرني ماذا نملك أنا وأنت المخلوقان إزاء الخالق؟ نِسبتُنا إليه كارتباط العدم بالوجود والنفي بالايجاب.

فحتى سلوكك إلى حضرته لا يتم إلّا بقدرته. الستَ المردد في صلواتك «بحول الله وقوته أقوم وأقعد» معترفاً بأنه لا طاقة لك على

القيام والقعود إلّا بفضله. إذاً، حاول تبني مثل هذه الفكرة والمعرفة أولاً قبل بدئك الصلاة بالتكبير، متأسياً بالإمام السجاد عليه السلام في قوله:

«مولاي يا مولاي أنت الحي وأنا الميت وهل يرحم الميت إلّا الحي».

لا تتصور أن الإمام كان يقصد الموت الآتي مآلاً بل الموت الحالي. فأنت لو تجردت عن ربك لا يكون لك إلّا العدم، فحياتك حياته. برسوخ هذه الفكرة لديك تتلون صلاتك بصبغة أخرىٰ. فالفقير لما يستوعب حقيقة فقره لا يبقى أمامه إلّا طريق الخشوع والخضوع. فأولىٰ خصائص الايمان حُددت بأنها «الخشوع في الصلاة». هذا ما نستوحيه من الآية:

﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[1].

وأنت لما التحقت بركب الخاشعين تغدو الصلاة ينبوع حياة نفسك. فلولاها تتعذر عليك مواصلة الحياة حيث يصبح ذكر الله وأداء الصلاة مدعاة سرور قلبك وبهجة فؤادك. عندئذ سوف لن تتثاقل منها أو تكابد وتقاسي أثناءها بل تبتهج لدنو موعدها وأنت بانتظاره:

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين﴾[2].

إياك وأن تكون ممن وصفهم الله في الآية:

---

١ ـ سورة المؤمنون (١ و ٢).

٢ ـ سورة البقرة، الآية ٤٥.

﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾[١].

قد يحدث أن تتوجه لزيارة شخص ما أداء للواجب فتجد خطاك متثاقلة في طريقك إليه. ولما تلقاه تعرض له في نفسك قدحاً وهجواً وأنت ترسم على شفتيك بسمة عريضة زائفة ثم تنهض في أقرب فرصة متاحة وتنقذ قلبك من الورطة الطارئة. وقد تكون اختبرت لفترة طويلة حالة انتظار قدوم شخص محبوب إلى قلبك. ولما تتنبأ بقرب لقائكما تضطرب وتتسارع دقات قلبك، تشعر كأنه طائر يدق رأسه بسور قفصه لعله يجد فيه ثغرة للانطلاق لينحني قبالته غير مبال أن تزهق روحه في لحظة اللقاء. فانظر كيف يكون حالك وأنت تؤدي الصلاة وهي في الحقيقة لقاؤه. ألم تسمع كيف كان يكابد نبينا ﷺ من لوعة اللهفة للقاء المحبوب ومن عناء معاشرة سواه عند اقتراب موعد الصلاة حيث كان يقول:

«أرحنا يا بلال».

ما أشقاك إن لم تهنأ بنعمة الصلاة ولم تظفر بلقاء حبيبك خلالها.

يروى عن أحد أهل بيت رسول الله ﷺ أن الخشوع في الصلاة إنما يعني أن توجه نظرك إلى الأسفل وتركز انتباهك في الصلاة لا غير أما الخشوع الظاهري الذي يبدو على الجسم دون أن يخيم على القلب فليس بذاك الخشوع الذي يلقئ بظله من القلب على الجسم. وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ بالله من خشوع النفاق. ولما سئل وما

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٤٢.

خشوع النفاق وصفه بأنه خشوع الظاهر دون خشوع القلب.

ويروى أن رسول الله ﷺ شاهد رجلاً كان يـفرك لحـيته أثـناء صلاته، فأكد أن قلبه لم يخشع وإلّا لكان جسمه قد التحق به.

«الخصائص المطلوبة في الصلاة»

هل ترغب في معرفة الخصائص المطلوبة في الصلاة؟

ايها العزيز! إنه في علمك أن للصلاة شروطاً أساسيةً ينبغي لك رعايتها كطهارة الجسم والملبس وحلية الملبس ومحل الصلاة وحلية الطعام. والآن لتستطلع باطن الصلاة وكنهها، اقتبس تعليماتها من إمامك صادق آل محمد عليه السلام حيث يقول:

«إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه. وفرّغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى وعاين بسرّك عظمة الله عز وجل، واذكر وقوفك بين يديه.

قال الله تعالى:

﴿هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾.

وقف على قدم الخوف والرجاء، فإذا كبّرت فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه، فإن الله تعالى إذا أطلع على قلب العبد وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره، فقال: يا كذّاب!

أتخدعني وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي. واعلم أنه تعالى غير محتاج إلى خدمتك وهو غني عنك وعن عبادتك ودعائك. وانما دعاك بفضله ليرحمك ويبعدك عن عقوبته وينشر عليك من بركات حنانيته ويهديك إلى سبيل رضاه ويفتح عليك باب مغفرته فلو خلق الله عز وجل على ضعف ما خلق من العوالم أضعافاً مضاعفة على سرمد الأبد لكان عند الله سواء أكفروا به بأجمعهم أو وحّدوه فليس له من عبادة الخلق إلّا إظهار الكرم والقدرة، فاجعل الحياء رداء والعجز إزاراً وادخل تحت سرير سلطان الله تعالىٰ تغتنم فوائد ربوبيته مستعيناً به ومستغيثاً إليه»[1].

أيها العزيز! قد تظفر بالفلاح من ركعة صلاة واحدة تؤديها خاشعاً. فربّك رحمن رؤوف بالعباد. ولما كان الأمر هكذا اختار الشيطان الصلاة كافضل ثغرة ينفذ منها إلى قلب الإنسان فما أن تنهض إلى الصلاة يعبىء جنده لصراع ثباتك. فإنه أقسم أن يقمع سجودك ويغتال عبوديتك، فاحذر! إنك في مقام جهاد شيطانك. تنبه بمجرد نهوضك للصلاة أن تتضرع عدة مرات إلى حضرة العظيم مستعيذاً من الشيطان الرجيم. وإلّا فإن قلبك ينشغل أثناء صلاتك بكل شيء إلّا هو.

ايها العزيز! لو تفقد مفتاح خزان ألبستك تنفق ساعات وساعات من وقتك باحثاً عنه، ولا يهدأ لك بال حتى تعثر عليه. وأنت فقدت نفسك وغدرت روحك. وإلّا فكيف يكون لك أن تشغل قلبك اثناء صلاتك،

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٣٩.

وهو موعد إخضاع جسمك لأمر ربك، بتقصي ضالة أخرى تملك عليك مشاعرك؟ تترك الزكي متشبثاً بالشقي، تدير ظهرك لربك طالباً رضا عدوك، تتعبد لفرعونك على مرأى سندك وعونك. لم تكشف النقاب عن نفسك بل انهمكت بحساب جوفك. أدرت لوهج القلب ظهراً وأظهرت لنهج السلب ولاء.

ما أسعد أوثانك بك وهي ترى تخلفك عن حبيبك الحقيقي وتضرعك إليها وتشبثك بغناها الوهمي. فهذا هو ما يطمح الشيطان إليه فكان ذاك سبيله إليك.

ففي عالم انشغل فيه الجميع بالسجود للرب لا يليق ان تتنكر لمنعمك وخالقك وربك وتعلق أملك على نعمة زهيدة عند مخلوق ومربوب إلهك!

ألم تسمع الآية:

﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والارض والطير صافات، كل قد علم صلاته وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون﴾[1].

قد يقال: لكثرة الأوثان لا أحد يفكر بالورد والريحان. ولكن أنت دع عنك الأوثان فقد نزلت ضيفاً بالجنان فأنعم بورد الياسمين لينتعش مشام نفسك بشذى الحبيب فتهتدي إلى حيث دياره.

مع بزوغ الفجر يبعث إليك المؤذن عبر نداء «حي على الفلاح» نسيماً ينشر عبير حبيبك فلا تفوّت الفرصة على نفسك.

---

١ ـ سورة النور، الآية ٤١.

فلحظات السحر لحظات ثمينة وأنسامه غنيمة. إياك والنوم في هذه الساعات كالكلاب. فالكلاب مرغمة أن تقضي الليل منذ بدايته وحتى الصباح في الحراسة بانتظار الصباح لتقضي عندئذ وطرها من النوم.

فلنعد إلى الإمام الصادق عليه السلام ونستمع منه إلى حديث آخر عن نهج الصلاة:

«لا يركع عبد الله ركوعاً على الحقيقة إلّا زيّنه الله بنور بهائه وأظله في ظلال كبريائه وكساه كسوة صفائه، والركوع أول والسجود ثان، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني وفي الركوع أدب وفي السجود قرب. ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب. فاركع ركوع خاضع لله عز وجل متذلل بقلبه، وَجِل تحت سلطانه، خافض لله بجوارحه خفض خائف حزين على ما يفوته من فوائد الراكعين».

كما يروى عنه عليه السلام أنه حكى أن الربيع بن خيثم كان يسهر الليل إلى الفجر في ركعة واحدة فإذا هو أصبح يزفر وقال آه سبق المخلصون.

واجهد كذلك أن تعرض طلباتك في القنوت بتضرع، اطلبها من قاضي الحاجات.. اطلب منه ما يروق لك.

فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكد في رده على سؤال لأبي ذر (ره) حول أفضل الصلوات بأنها الأطول قنوتاً.

وسئل أحد أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن شخصين بدآ الصلاة بنفس الحالة وفرغا منها يقرآن السلام بنفس الحالة ولكن أحدهما أطال الركوع والسجود والآخر القنوت فأي الصلاتين أفضل. فأكد أنها الأطول قنوتاً.

فاعلم، إذاً، ايها العزيز! ان الله يحب ان يتقدم إليه عبده الفقير المحتاج بطلباته. فقل: إلهي! أنت قاضي الحاجات، فما ذنب صاحب الدار لو كان المتسول متثاقلاً؟

واعلم كذلك أن أغلبية مراجع التقليد الموثقين أجازوا قراءة القنوت بأية لغة كانت ولمقلديهم أن يدعوا الله في قنوتهم ويتسولوا على باب رحمته بأية لغة دون التقيد باللغة العربية.

وقلما يحدث أثناء معاشرة الأصدقاء والمعارف أن تجلس إليهم وتحاورهم ويكون فكرك في الوقت ذاته سارحاً في أجواء أخرىٰ. فكيف لك أن تسمح لقلبك، وأنت تحادث ربك وتوجه لحضرته وجهك، أن ينشغل بأمور أخرى؟ هذا ما أنذر الله سبحانه وتعالىٰ من عاقبته في الآية:

﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾[1].

ومن الحكمة لكل شخص أن يتعمق، قبل أداء كل من فرائض الصلاة، في حديث عظيم جاء عن رسول الله ﷺ وجه فيه المسلمين أن يعبدوا الله وكأنهم يرونه فإنهم إن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم دون أدنىٰ شك.

كما يروى عنه ﷺ أنه قال:

«إذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله إليه» أو قال «أقبَل الله عليه حتى ينصرف وأظلّته الرحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء والملائكة تحفّه من

١ ـ سورة الماعون، الآيتان ٤ و ٥.

حوله إلى أفق السماء ووكل الله به ملكاً قائماً على رأسه يقول له: ايها المصلي لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التفت ولا زلت من موضعك أبداً».

ألا تعرف كم من المردودات العظيمة تنالها لو ظفرت بـرحـمة الله ونظره إليك.

قال تعالىٰ:

﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾[١].

فإن كانت رحمته تحيي الأرض الميتة وهو عز وجل يذكر أنه من آثار رحمته، فلقلبك أن ينال آلاف أضعافها حيث يكـمن فـيه آلاف أضعاف ما تحتويه التربة من عوامل رقي كامنة.

يروي الإمام الباقر عليه السلام أن اباه الإمام علي بن الحسين عليه السلام كان لما يقف مصلياً يتغير لونه ولا يرفع رأسه عن السجود إلّا والعرق يتصبب منه ويغدو كالعود تهزه الريح.

جئتك ببعض عبارات مـن الأحـاديث والروايـات حـول الركـوع والتكبير. أمهلني أنهي البحث بحديث شيق عن الإمـام الصـادق عليه السلام حول السجدة حيث يقول:

«ما خسروا والله تعالىٰ قط من اتى بحقيقة السجود ولو كـان فـي عمره مرة واحدة، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شـبيهاً بمخادع نفسه غافلاً لاهياً عما أعد الله تعالى للساجدين مـن البشـر العاجل وراحة الأجل ولا بعد عن الله تعالى أبداً من أحسن تقربه في

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٥٠.

السجود ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال السجود فاسجد سجود متواضع لله ذليل علم أنه خلق من تراب يطؤه الخلق وأنه ركّب من نطفة يستقذرها كل أحد وكُوِّنَ ولم يكن، ولقد جعل الله معنى السجود بسبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح. فمن قرب منه بَعُد عن غيره، ألاترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلّا بالتواري عن جميع الأشياء والإحجاب عن كل ما تراه العيون، كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله تعالى فهو قريب من ذلك بعيد عن حقيقة ما أراد الله تعالىٰ منه في صلاته.

قال الله تعالىٰ:

﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾.

وقال رسول الله ﷺ:

«قال الله عز وجل: ما اطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلّا توليت تقويمه وسياسته وتقرّبت منه ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه، اسمه مكتوب في ديوان الخاسرين»[١].

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٤٢.

«خطوات مطلوبة نحسّن بها صلاتنا»

لا شك انك بهذه التمهيدات صرت تضمر في قلبك طموحاً أن توفق لأداء صلاة مطلوبة والتضرع إلى الله بِوَلَهٍ ومشاعر خالصة وتعتلج الرغبة لمعرفة ماذا عليك أن تفعله لاستزادة خشوعك ومنع شرود ذهنك أثناء الصلاة.

ولتحقيق ذلك هنالك أسلوبان، أسلوب يتعلق بالظاهر والآخر بالباطن.

وأما ما يرتبط منهما بالظاهر والخارج، فاعلم أنه طالما كانت الآذان مشغولة وهكذا العيون، يتعذر على القلب أن لا ينشغل بتأثيرها.

فكيف تتوقع أن تؤدي صلاة مطلوبة وانت تعتزم على الإتيان بها في غرفة الاستقبال والأطفال يثيرون الضجيج إلى جانبك وقد يضاف إليه صوت المذياع أو التلفاز وكذلك حوار المحيطين بك؟ ما أخدعها من أوهام!

كان القدماء في ايران مثلاً، يخصصون غرفة صغيرة من الدار

يسمونها «المصلى»، وأنت أيضاً خصص للصلاة مثل هذا المكان المعزول. فإن واظب جميع أهل الدار على الصلاة فيه يكتسب نوراً إلهياً كنورانية المسجد. امنع الكلام عن الدنيا وشؤونها في هذا المكان ولا تُدخل إليه إلّا ما يتسم بالبساطة من المفروشات والأثاث متجنباً المفروشات والستائر المنقوشة الزاهية.

ومن مستحبات الصلاة استعمال سجادة الصلاة وخاتم العقيق والعطور و.... فإنها زينة صلاتك. ولو يلتف الرجال بعباءة فإنه من الأفضل.

ومن المكروهات ان تستقبل باب الدخول أو منفذ يحفز شرود ذهنك وكذلك المصابيح والمدافىء ويكره وجود صور الحيوانات في مكان الصلاة. وبإجمال أقول جرّد الغرفة بجميع أجزائها من عوامل شرود الذهن واحرص قدر الامكان على أداء الصلاة في المسجد أو جماعة، فلها من الثواب مئات الأضعاف وتأمن بها آثار أغلبية هذه العوامل المثيرة.

أما ما يرتبط بالباطن ففي تنفيذه درجة أكبر من الصعوبة قياساً إلى الظاهر:

أولاً: ينبغي أن تصقل قلبك من حب الدنيا. فمن المستحيل أن تظفر بحب رب الأرباب وأنت ترعرع في قلبك حب دنياك. وقد حدثتك عن هذا الأمر في بحث (التخلي) فلا أعيد الكرة في الكلام فيه. فوعاء القلب لا يستوعب عبئين:

﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾[١].

كما يتوجب عليك أن تتحاشى تشتت أمورك وعملك. إجعل حساباتك متوحدة لتتجنب كثرة انشغالات قلبك بأمور مالك فلكل قلب معشوق واحد. ولا طائل من كثرة التعلقات إلّا زيادة الانشغالات. إذاً، فيما يعود لما لا مفر من أمور كسبك ودنياك، إمنع كثرة انشغالات قلبك.

كما يتوجب عليك أن تلتحق بما يسمىٰ «الخط النوري» في الصلاة. أوَ تسألني عما هو الخط النوري! أقول انه خط يمتد في موعد الصلاة من أرجاء العالم بأسره نحو الكعبة المشرفة. وإن كنت تستجلي الملكوت لكنت رأيت الكعبة تتصل في تلك الساعات بهذه الخطوط النورية الممتدة إليها من أنحاء العالم كلها.

وللصلاة في أوقات الفضيلة حساب خاص. التزم حتى المقدور بالصلاة في بداية موعدها. فمن يهملها إلى بعد ذلك يكون أول آثار ذلك فيه أن يسلب قلبه لذة المناجاة مع الرب.

ما أن يتناهى صوت المؤذن إليك، يقول «حي على الفلاح» اترك عملك إلى ما هو خير منه ملبياً دعوة المؤذن وما أسعدك حظاً إن وفقت للجلوس على سجادة صلاتك قبل دقائق من الأذان بانتظار حلول موعده وحصولك على إذن بالدخول إلى ساحة كبرياء الحق تعالى. واظب على اتخاذ هذا الإجراء بان تستدخل مشاعر الهدوء إلى

---

١ ـ سورة الأحزاب، الاية ٤.

نفسك وأنت تستقبل القبلة جالساً على سجادتك لدقائق قبل بدء الصلاة. إقص الأفكار جميعاً، اصقل القلب عن تشوشاته. اقمع هذه الأفكار بمضراب «لا إله» لتزين نفسك بحلية الإخلاص وأنت تنطق بعبارة «إلّا الله». بعدئذٍ انهض لأداء الصلاة.

ومن المستحبات أن تردد قبل ذكر التكبير ما انساق على لسان النبي ابراهيم ﷺ عندما أنأى جميع الالهة المزيفة عن قلبه حيث قال:

إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[1].

وعظمة السماوات والأرض أمر لا أدركه أنا ولا أنت. هذا ما نعبِّر عنه عندما نردد التكبير بقولنا «الله أكبر» عندما تتجول أفكارنا في أرجائها. فكيف لمن يعجز عن استيعاب عظمة المخلوق أن يدرك عظمة الخالق؟! أنت تقف الآن أمام رب يمثل هذه العظمة متعبداً ويستحب لك كذلك أن تترنم بما ذكره لك الباري تعالى على لسان النبي ابراهيم ﷺ حيث قال:

﴿قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾[2].

إذاً، لقن نفسك على الدوام، إنني لست مالك حياتي ولا مماتي ولا ممتلكاتي ولا أتحكم حتى بدقات قلبي وتردُد أنفاسي.

أيها العزيز! إنها حضرة العزة والجلال، هو العزيز المطلق وكل منا

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٧٩.

٢ ـ سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

ذليل مطلق. هو غني بذاته ونحن فقراء ذاتياً. أنه حي بذاته ونحن موتى ذاتياً. فمن أنا لأتجرأ على الوقوف أمامه ابداً وأرى نفسي جديراً بترديد عبارات حمده وبالتحدث إليه. ولكني لا أنسىٰ الحديث النبوي الشريف الذي قرأت فيه انه ﷺ يعتبر قراءة القرآن كلام الله مع العبد والدعاء كلام العبد مع الله والصلاة كلام الله مع العبد وسماعه (عز وجل) كلام العبد في آن واحد.

فافرض أنك تجلس إلى ساحل أحد المحيطات. فما حظ معدتك من ذخائر مياهه؟

الشاعر الايراني عطار النيشابوري يشبه موقفنا هذا ببعوضة تجلس إلى البحر وهي تتمنى أن تستحوذ على ملكية مياهه كلها.

أتيتك بهذا المثال وقد ضاق صدري من عجز العبارات، فالحديث عن عالم الملكوت وعالم المعنى يتطلب ألفاظاً وعبارات خاصة لم يذكرها أي من المعاجم والقواميس حتى الآن. فلا عظمته تقاس بالبحر ولا ضعفنا بضعف البعوضة فالبحر مخلوق الله ونحن أعجز من البعوضة في بعض الحالات. فبهذا الإدراك عن فقرنا إلجأ إلى حضرة «الغني» واطلب منه أن يغنيك بغناه.

ولتكن حالك حال المتسول الذي فتحت له بوابة قصر السلطان. فأنت تقف بين يدي مالك الملوك، وحاجتك يلبيها لك هو: العزيز المقتدر. ولوقوفك هذا في ظاهره آداب وفي باطنه آداب.

يروى أن رجلاً عاد من لقاء سلطان عهده ولما خلع لباسه انطلق منه عقرب كان قد لسعه في مواضع سبعة من جسمه.

سئل: ولِمَ لم تخلع رداءك فوراً فتتخلص من العقرب عاجلاً؟

قال: كنت للسلطان محدثاً ولم يكن في ذلك أدب ولم أشعر، ما دمت عنده، ألماً، ولما صرت له تاركاً تقطعت أنفاسي ألماً.

هذه هي آداب الحضور في مجلس عبد من عباد الله سمي ملكاً أو سلطاناً. فقس على ذلك ما هو مطلوب منك عند الحضور بين يدي الخالق الرحمن.

وأنت تعلم حكاية سحب السلاء من قدم مولى المتقين الإمام علي عليه السلام أثناء أدائه الصلاة دون أن يتنبه لذلك وكان لا يطيق ألمه في مواعيد الصلاة. هذا هو مقام القرب. ولكن إعلم ان الشيطان ليس لك بتارك اثناء صلاتك. فأصبحت المراقبة المتواصلة منك مطلوبة ولتكن حالك حال ماسك بمكنسة ما أن يأتي الريح بأدنى قشة يسارع لكنسها وإزالتها. فاطرح فوراً أية فكرة تتحامل على ذهنك قبل أن تستجلب وراءها ألف فكرة وفكرة.

وأفضل صلاتك تؤديها وأنت متجرد عن كل شيء. فيكون قيامك وقعودك وركوعك وسجودك خالصاً لله فتتجلى لك حقيقة ما تنطق به خلالها وأنت تتفوه بعبارة: «بحول الله وقوته أقوم وأقعد».

ايها العزيز! أينما أُفنيت النفس تجلى الله ومتى ما ضعفت النفس اشتد انقيادك لله. هذا ما يتوثق منه الجميع عند موت الأبدان. إجهد لتتصل بمثل هذه المعرفة وأنت تؤدي كل فرائض صلاتك. فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«لا تتم الصلاة إلّا لذي طهر سابغ، وتمام بالغ، غير نازع، ولا زائغ

عرف فوقف، واخبت فثبت، فهو واقف بين اليأس والطمع، والصبر والجزع، كأن الوعد له صنع والوعيد به وقع، بذل عرضه، ويمثّل غرضه، وبذل في الله المهجة، وتنكّب إليه المحجّة، غير مرتغم بارتغام، يقطع علائق الاهتمام، بعين من له قصد، وإليه وفد، ومنه استرفد، فإذا أتى بذلك، كانت هي الصلاة التي بها أمر، وعنها أخبر، وانها هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر».

بمثل هذه الصلاة تدرك المفهوم الواقعي لعبارة «الصلاة معراج المؤمن»، وتظفر بمقام «قاب قوسين». واعلم أن صلاة الجميع تتماثل في ركعاتها ولكن ما أكثر تباين أثرها ونمطها.

«صلاة الليل»

ايها العزيز بم تتشبث وأنت تكابد لوعة الفراق؟!

لك حديث عن الحب. فلو قيل للمحب: الحبيب فتح أبوابه لك وهو بانتظارك، ووجدته تريث ولو للحظة واحدة، اعلم إنه عابث في حبه.

يمكن أداء سبع عشرة ركعة في الصلاة الواجبة اليومية خلال سبع عشرة دقيقة. فهل لك كفاية بمثل هذا اللقاء مع الله؟

ذكرنا سلفاً أن الله سبحانه وتعالى أوحىٰ إلى نبيه موسى بن عمران ﷺ انه يكذب من يتصور أنه يحب الله ويخلد إلى النوم مع حلول الليل غافلاً عن ربه. هكذا أوصىٰ الله سبحانه وتعالى النبي موسى ﷺ أن يرسل دموعه لمولاه ويكون خاشعاً له بقلبه ويدعوه في دياجير الليل ليجده ملبياً دعاءه عاجلاً.

ويؤكد رسول الله ﷺ في حديث له أن أداء صلاة الليل شرف للمؤمن.

أقسم دون شك أنه لم يكن بين أنبياء الله وأوليائه من لم ينل كل ما

ناله بفضل إحياء الليل. فالسحر كان ميقات وصال كل من ظفر بالوصال، وقرب من حظي بالقرب ولقاء من فاز باللقاء.

هل تعلم في أي أجواء تهيم إن أفنيت نفسك في ذات الله؟ وماذا يجري عليك إن التفت لتجلي صفات الحق تعالىٰ؟ قلبي يأمرني أن أبوح بكل ما أعرف ولكن عقلي ما زال يلزمني الصمت. أمهلني آتيك بهذا الحديث في بحث (التجلي) إن شاء الله، فالمقام هنا لا يناسب لمثل هذا الحديث. إذاً، استمع إلى القرآن الكريم:

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، ومما رزقناهم ينفقون﴾[١].

اطلب السقي ليلاً. فالخمر يقدم اسحاراً وإنّ للمعتلين منه دواء فاعلاً. ألم تسمع أن ماء الحياة يجري في الظلمات، والصياد يضع فخاخه في الدُجى والمحب يبحث عن هنائه في الظلام.

فالحبيب وضع الفخ مترصداً وفتح الباب منتظراً وصب في الكؤوس خمراً، فأزل آثار ثمالة الدنيا عن فمك مطهراً، واهتف إزاء هذه الدعوة ملبياً.

وكان مما ناجىٰ به الباري تعالى النبي داود عليه السلام الواله بخالقه والقائد لخلق ربه:

(يا داود، عليك بالاستغفار في دلج الليل والأسحار. يا داود إذا جن عليك الليل فانظر إلى ارتفاع النجوم في السماء وسبحني، وأكثر من

---

١ ـ سورة السجدة، الاية ١٦.

ذكري حتى أذكرك.

يا داود! إن المتقين لا ينامون ليلهم إلّا بصلاتهم إليّ ولا يقطعون نهارهم إلّا بذكري.

يا داود! إن العارفين بي كحلوا أعينهم بمرود الليل وقاموا ليلهم يسهرون، يطلبون بذلك مرضاتي.

يا داود! إنه من يصلي بالليل والناس نيام يريد بذلك وجهي، فإني آمر ملائكتي ان يستغفروا له وتشتاق إليه جنتي، ويدعو له كل رطب ويابس.

يا داود! إسمع ما أقول والحق أقول، إني أرحم بعبدي المذنب من نفسه لنفسه وأنا أحب عبدي ما لا يحبني، واستحيي منه ما لا يستحي مني».

فلولا الليل لمن كنت أبوح بما في القلب من أسرار؟ ولمن أقر بما كان مني للذنوب من تكرار؟ يا من يصارحه قلبي بأسراره ليلاً ويامن أبثه نجواي ليلاً. حقاً الاختلاء بك جنة والمكوث سحراً في المضاجع أقبح سنة.

فمن يمكنه مناجاة ربه هكذا يستقبح له التوسد حتى الصباح. سارع الخطى فها هنا تحل العقد كلها. فالمقام ليس مقام التظاهر وتعظيم الذات فالمتمسكون بالذوات جميعهم نيام.

يروى عن عبد الله بن سنان انه سمع الامام جعفر الصادق عليه السلام يقول: «ثلاث هن فخر المؤمن وزينه في الدنيا والآخرة، الصلاة في آخر

الليل ويأسه مما في أيدي الناس وولايته الإمام من آل محمد ﷺ».

ففيما تسقاه من خمر ليلاً ثمالة أبدية ولروحك منه حياة جديدة:

﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾[١].

فلولا الليل لصارت الحياة تعباً ونكداً، أشعرتك وتيرة العمر وكأن روحك سوف تغادر جسمك زهقاً. فمهما أصابك نهاراً ـ جراء الفراق ـ من شقاء، لك في دعاء الليل نقاء وهناء. فحكاية المحب مع صخب النهار حكاية ضيق ونصب ومع اختلائه في الليل انفراج عن الهموم والكرب.

ألم تسمع قوله تعالى يصف الأبرار:

﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾[٢].

وكذلك في الآية:

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾[٣].

وإن كنت راغباً في معرفة من هم المستغفرون بالأسحار المذكورة في هاتين الآيتين استمع إلى حديث عن أهل بيت رسول الله ﷺ:

جاء في كتابي «الفقيه» و «الخصال» عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال:

«من قال في وتره إذا أوتر «استغفر الله وأتوب إليه» سبعين مرة وهو

---

١ ـ سورة الأنفال، الآية ٢٤.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٧.

٣ ـ سورة الذاريات، الآية ١٨.

قائم، فواظب على ذلك حتى يمضي له سنة كتبه الله عنده من المستغفرين بالأسحار ووجبت له المغفرة من الله عز وجل».

وتذكر الكثير من الروايات أن الاستغفار سبعين مرة في صلاة الوتر كان من سنن رسول الله ﷺ.

يروي صاحب كتاب الكافي عن سليمان بن خالد أنه سمع الإمام محمد الباقر عليه السلام يقول وهو يخبره عن أبواب الخير بأن الصوم هو درع من نار جهنم والصدقة تمحو الخطايا والصلاة في جوف الليل تذكر العبد بربه.

هل تعلم أن الدعوة لمثل هذه اللقاءات لا توجه إلّا للخواص من الأصحاب، ولمثل هذه الخلوات إلّا للأحباء الذين يجيدون التضرع تواضعاً، ويرغبون في محاورة الحبيب ولهاً.

ألم تسمع بأن هذه الصلاة سنّت مستحبة للجميع وفريضة على نبينا محمد ﷺ. هكذا تلقى الأمر بأدائها كفريضة في الآية:

﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾[1].

وأنت بدورك لو كنت ترغب في نيل هذا المقام إلتزم نهج قائدك فقد كان متولهاً بصلاة الليل.

يروي ابن جرير عن مجاهد ان رسول الله ﷺ لما كان يتحدث عن إحياء الليل تكتظ مقلتاه بالدموع حتى تنهمر من عينيه وهو يردد الآية:

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٧٩.

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾.

فالسحر لا يُدعى إليه إلّا الخواص، خواص العباد. فلا حظّ لكل من هب ودب من حلته. فإن وفقت لذلك فاحمد الله واشكره على هذا التوفيق فانه لدليل على فوزك بغفرانه.

جاء في تفسير مجمع البيان حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام قال فيه:

«ما من حسنة إلّا ولها ثواب مبين في القرآن إلّا صلاة الليل، فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها، قال:

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾[١].

كما يصف الرحمن عباده الخُلص بانهم يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون ما يردون إلّا بقول «سلاماً» ثم يقول عز وجل:

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾[٢].

وأنت تدرك ما في النهوض سحراً من النوم من لذة. والمحب يعرف ما في الاختلاء بالحبيب من استئناس والمتلوع بنار الفراق يرنو لتذوق لذة الوصال. دعني أقودك لنعرج معاً على روضة شيخ شيراز لنهنأ هنيهة بعبير شذاه:

«أذكر ذات ليلة وأنا برفقة قافلة ما، نمنا وقت السحر قرب غابة يصحبنا ولهان لم يهدأ لحظة. ولما انفلق الصباح سألته: وأي حال

---

١ ـ سورة السجدة، الآية ١٧.

٢ ـ سورة الفرقان، الآية ٦٤.

هذه؟

قال: رأيت البلابل ضجت بالأنين على الشجرة، والحجليات في الجبل والضفادع في الماء والبهائم في الغابة. أبيتُ لنفسي السكون والجميع مسبحون».

***

يروي ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«حسب الرجل من الخيبة أن يبيت ليلة لا يصلي فيها ركعتين، ولا يذكر الله فيها حتى يصبح».

هذا وقد تكررت عبارة «عليكم بصلاة الليل» ثلاث مرات في وصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. أما رسول الله ﷺ فانه كان يقول:

«ألا ترون أن المصلين بالليل هم أحسن الناس وجوهاً لأنهم خلوا بالليل لله. فكساهم من نوره»[١].

***

انت في سياق استضافتك من قبل احبائك، لا ترفض لهم دعوة بل تتعجل للقائهم بلهفة ولذة واستئناس. فكيف لك أن لا تلبي دعوة الحبيب الواقعي إلى هذه الضيافة؟ وأنّى لك ان ترتدع من السلوك إليه

١ ـ علل الشرائع: ٣٦٥، ح ١، وعنه البحار ٨٧: ١٥٩، ح ٤٨.

وتقصي شذى وصاله العبق؟

وأنا بدوري لم أجد في أي من الأحاديث إجمالاً ما يروي ظمأ عطاشى الحب وتحظى سنديتها في الوقت نفسه بتأييد جميع الشرائح الاسلامية مثلما هو في حديث النافلة حيث قال تعالى:

«لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به»[١].

فهل تطمح لنيل مقام أسمى من هذا؟ بالطبع يمكن عرض هذا الحديث للدراسة والتحليل في كتاب كامل ولكنك لم تحرز بعد الاستعداد لمثل هذا البحث، عسىٰ أن نتأهب لمثل هذا ونحن نواصل رحلتنا في رحاب (التجلي).

كأنني اسمع صوت انفاسك وانت تقول: عبد الله هذا يرتجز شعراً أو يهذر. إنني غرقت في انشغالات دنياي وحياتي حتى لا استطيع أداء صلواتي الواجبة إلّا بشق الأنفس. وهذا يقول انهض سحراً لصلاة نافلة.

فترنيمة النفس هذه ليست بترنيمة اليوم ولا الأمس بل إنها طنطنة الزنابير تثار على طول زمان تحليقها ولكن أمرك مفوض إلى الله فلِمَ تنصت لحديث النفس؟ رد عليها: لو أُدعىٰ إلى حفل لهو انفق فيه ساعات من وقت نومي هل كنت تثيرين كل هذه الضجة لمنعي عن تلبية الدعوة أم تشعرين بمنتهى الرضا؟ أنت في صراع متواصل معي، تجهلين موطن صلاحي ونفعي.

---

١ ـ حديث قدسي.

استأنس بذكر الحبيب لتتمكن من قمع النفس وكبح نداءاتها. صد وسواسها عن اقتحام القلب. إخلد مبكراً إلى النوم ليلاً لتخصص ساعات من وقت السحر، تصحو فيها لعبادته فتطرق باب الحبيب، لا سيما في ليالي الشتاء، فما أطولها من ليالٍ:

﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾[1].

---

١ ـ سورة الإنسان، الآية ٢٦.

«الوله الزائف»

أكثر محب من ادعاء الحب والوفاء واتهام حبيبته بالصد والجفاء وقد أثار بهذا الكلام ضجة لسنوات وسنوات:

عاقبت جـوينده يـابنده بـود　　كه فرج از صبر زاينده بود[1]

حتى ظفر بموعد للوصال من حبيبته ذات يوم شريطة أن لا تأتيه إلّا بعد انتصاف الليل:

در فلان حجره نشين تا نيمه شب

تا بيايم نـيمه شب مـن بـى طـلب

مرد قربان كرد و نانها پخش كـرد

چون پديد آمد مَهش از زير كـرد

---

١ ـ معناه:

«من جد وجد، والصبر مفتاح الفرج».

شب در آن حجره همن برد انتظار
بــرامــيد وعـده آن يـار غـار[١]

قضى المحب ليلته يعد لحفل اختلائه ويتعجل (بالدعاء إلى ربـه) قدوم حبيبته. مرت الساعات وهو في انتظار ومع قرب انتصاف الليل صار النعاس يغالبه والجسم بالنوم يطالبه. قال: استلقي ولكن لا أخلد إلى النوم:

سـاعتى بـيدار بـد خـوابش گـرفت
عاشق دلداده را خواب؟! أى شگفت
بــعد نــصف اللــيل آمــد يـار او
صـــادق الوعـــدانـــه آن دلدار او
عـــاشق خــود را فـتاده خـفته ديـد
انــدكى بـــاز آســـتين او دريـد[٢].

---

١ ـ معناها:

ـ «جلس في الغرفة الفلانية حتى منتصف الليل منتظراً، فتراني آتـيك آنـذاك طوعاً».

ـ «أتى الرجل بذبيحة وقدم الخبز نذراً، وهو يشعر مع قرب قدوم جمالها، طرباً».

ـ «قضى الليل في تلك الحجرة مترقباً، وللقاء الحبيب طامحاً».

٢ ـ معناها:

ـ «بعد سـاعة من صحوة عسرة غـالبه النـوم، وهـل للـمحب الواله أن يـنام؟

←

فالحب والنوم لا يلتقيان، والمحب لا يأتي دار الغرباء، ولا صمود لتوبة التائب المتجرد عن الحب. اعقد العزم حازماً واسلك دربك محباً والهاً، فحبيبك الغني المطلق ونحن لا نملك إلّا الفقر المدقع. بوابة ديار الحبيب تفتح مع انتصاف الليل وأنت إن كنت راغباً في الوصال أما تتغاضى عن ساعات من نومك لتأتيه في موعد الوصال أو كف عن الإدعاء وتتسلى بما يتسلى به صغار الأطفال.

فلو كنت لا تنال التوفيق لأداء صلاة الليل فاعلم أن أعمال نهارك تسلبك هذه السعادة فقد قضيته دون شك مفكراً بالزوجة والعيال، وبالدار والمنال، بالزاد والمال ونسيت حظ نفسك فما أتعسك!

أعد النظر في أعمالك، فحذارِ أن تجرفك إلى حيث تضطر إلى العودة إلى مقام التخلي.

يروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه كان يقول أن العبد ليذنب فيحرم من أداء صلاة الليل. فالفعل السيىء أمضى في فاعله من السكين في اللحم.

فشتان ما بين عبد مذنب فار من حضرة مولاه وذلك الذي يصفه مولاه في الآية:

﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة

← واعجباه!»

ـ «بعد انتصاف الليل قدمت حبيبته، جاءت قرة العين بالعهد صادقة»

ـ «وجدت والهها مستلقياً نائماً، فشقت قليلاً من كمه علامة (على عدم صدقه)».

ربه﴾[١].

ليلك تقضيه في هانىء من رقاد ونهارك في غفلة وفساد، وهمتك تصرفها في استزادة زاد، فمتى تصحو من السبات وتمضي إلى ربك متضرعاً بالأنات؟ ولأزيدنك لهفة لاتخاذ مثل هذه الخطوات الفت انتباهك إلى هذه الأحاديث القيمة:

يقول سيد الكونين محمد المصطفى ﷺ:

«صلاة الليل نور، عليك بصلاة الليل. من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار»[٢].

وعنه ﷺ أيضاً:

«ان لله تعالى منادياً ينادي في السحر: هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من طالب فأعطيه؟».

وأكد ﷺ أيضاً، لولا أن الله عز وجل رأى ان صلاة الليل تشق على الناس وقلما يؤدونها لجعلها فريضة عليهم.

وقال الامام علي عليه السلام :

«من استغفر الله في السحر سبعين مرة كان من الذين قال فيهم: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾».

وعن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الخصوص:

«كذب من زعم أنه يصلي صلاة الليل وهو يجوع. إن صلاة الليل

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٩.

٢ ـ مستدرك الوسائل، المجلد ٦، ص ٣٣٧.

تضمن رزق النهار».

وعنه ﷺ أيضاً:

«شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس».

«قراءة القرآن، حلية وزاد»

ايها العزيز! انهض واعتق القرآن من محبسه. ارفع عنه حصار المقابر، فالأموات يقولون: لقد أنزل رحمة للأحياء. لا تجعله لنحر وجِيدِ الأطفال زينة بل للقلوب سكينة. فان هذا الكتاب يسخر، في هيئته الملكوتية، منا لمثل هذا السلوك.

فالقرآن انزل للقراءة ومن ثم التدبر والتفكير. لتتلوها بعدئذ مرحلة التنفيذ والتفعيل. فإن فعلت به غير هذا تكون قد اتخذته هزواً ولعباً بينما هو روضة العرفاء ومسند الفقهاء ومعتمد القضاة الأتقياء وبشرى للعباد، وكل ينال من هذا الكتاب على قدر حاجته واستيعاب معرفته.

واحسرتاه على قلوبنا المتغشية بحجب منعت عنه الأنوار الالهية لهذا الكتاب العظيم وحرمتنا من استيعاب ملكوته. فنمر مرور الكرام على آياته أو نودعه في خزان تتراكم عليه الأتربة والغبار.

ثم وا أسفاه علينا فها نحن نقرأ قول بارينا:

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾[١].

فإمعان التفكير في هذه الآيات مردوده الفوز بروضة المحبين وشفاء قلوب المعانين والوالهين.

قال تعالىٰ:

﴿قُل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد﴾[٢].

أمهلني أذكر لك آداب معاشرة القرآن من حديث للإمام الصادق عليه السلام:

«من قرأ القرآن ولم يخضع لله ولم يرق قلبه ولا ينشىء حزناً ووجلاً في سره، فقد استهان بعظم شأن الله تعالى وخسر خسراناً مبيناً».

فقارىء القرآن محتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع وبدن فارغ وموضع خال. فإذا خشع قلبه فرّ منه الشيطان.

قال الله تعالى:

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾.

فاذا تفرّغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة ولا يعترضه عارض فيحرمه بركة من نور القرآن وفوائده، فإذا اتخذ مجلساً خالياً واعتزل عن الخلق بعد أن أتىٰ بالخصلتين: خضوع القلب وفراغ البدن

---

١ ـ سورة الحشر، الآية ٢١.

٢ ـ سورة فصلت، الآية ٤٤.

إستأنست روحه وسره بالله عز وجل، ووجد حلاوة مخاطبات الله تعالىٰ عز وجل لعباده الصالحين وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم بفنون كراماته وبدايع إشاراته، فإن شرب كأساً من هذا المشرب لا يختار على ذلك الحال حالاً وعلى ذلك الوقت وقتاً، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة، لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشود ولايتك. وكيف تجيب أوامره وتجتنب نواهيه وكيف تتمثل حدوده فإنه كتاب عزيز: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، فرتله ترتيلاً، وقف عند وعده ووعيده، وتفكر في أمثاله ومواعظه، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده».

أبصرت ذات مرة ولهان يضم أوراقاً إلى بعض ثم يلفها معاً بمنديل حرير ويضعها على صدره كأنه مرهم يضمد جراحه. قلت له: ما هذه؟ هل هي وثائق ملكية دار أبيك أم زواج أحد أحبتك؟

قال: بل خطاب الحبيب. وما أدراك كم لي في مكاتيبه منذ بدء مراسلتنا أنس ورغبة فمكتوبه مثله يلوع القلب، جعلت أوراقه رمزاً له وذكرىٰ، فلا أشعر من قراءتها بملل أو اكتفاء.

فالجمال يجلب الوله والمحب يضحي بروحه لكسب رضا حبيبه، فأنت ايها المدعي بالحب! حدثني عما فعلته حتى الآن حباً وتعلقاً بخطاب حبيبك؟!

يقأل ان العبد اذا أراد التحدث إلى ربه وحبيبه فليتوجه إليه بالدعاء ولو أراد التنعم بكلامه فليقرأ القرآن. وإن شدك الشوق أن تحدثه

ويحدثك فاجلس في موضع صلاتك. فهذا هو نهج الحب والهيام ودواء الأمراض والآلام .

ولتتوثق من كلامي استمع إلى الحديث النبوي الشريف:

«القرآن هو الدواء».

وها هو القرآن يحدثك عن نفسه في الآية:

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[1].

وكذلك في الآية:

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾[2].

فإن كنت معانياً من أوجاع الباطن (النفس) فلِمَ لا تعتصم بالقرآن وآياته وتعاجل في أخذ دوائه وعلاجاته؟ أوَ لا تعلم أن لأمراض الباطن انعكاسات تتجاوز عوارض مئات الأوجاع والأمراض الجسمية الظاهرية. أنت تتقصى لأوجاع الظاهر علاجاً وتكون عنه في كل حدب وصوب باحثاً ولكل من هب ودب متحدثاً ولكن ما خطبنا نكابد آلاف الآلام في باطننا ونعزف عن تعاطي هذه الوصفة لعلاج عنائنا؟!

يقول رسول الله ﷺ:

«قارىء القرآن التابع له لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة».

---

١ ـ سورة يونس، الآية ٥٧.

٢ ـ سورة الاسراء، الآية ٨٢.

يا من بحبه تتحول الأتراح أفراحاً، والبوران عمراناً، والشقاء راحة، والعناء استراحة، وأشواك دربه تداعب الروح، وطريق معرفته روضة النفوس. يا من الكد والجهاد في سبيلك ذخر، وافتقار المعارف والأقرباء والوحدة في ظلك عز، وكثرتهم في بعدك ذل والأفراح اتراح والنعمة نقمة ومشقة. فما أغرب من حرم نفسه معيّتك والانتهال من ينبوع كلامك والانتفاع من فيض حديثك!

سارع خطاك فها هنا الدواء، وتلاوته للآلام شفاء. فأنس القرآن استئناس مع الله، وفيه لقلبك الابتهاج، ولنفسك الانتعاش. فها هو الحق تعالى يخاطبك:

﴿قم الليل إلّا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً﴾[١].

فكيف لك أن لا تنهض سحراً وتتخذ حبله معتصماً؟ ففي الاعتصام بحبله قرار وبسواه عار وشنار. في هذا المقام يظهر لك وراء كل آية حجاب ووراء كل حجاب حجاب آخر، وبإزاحتك لكل منها يتجلى لك نور أقوى:

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾[٢].

أَوَ لا تعلم أن رسول الله ﷺ أكد أن قلوب الناس كحديد صَدِيء لا يزول صدؤه إلّا بقراءة القرآن.

---

١ ـ سورة المزمل، الآيات ٢ ـ ٤.

٢ ـ سورة النساء، الآية ١٧٤.

ماذا دهانا؟ قد نهدر ساعات من وقتنا في عطالة أو ننشغل بالأوهام في عالم خيالنا، ننسج سدىً ولحمة حكايات وحكايات في أدمغتنا، والقرآن إلى جوارنا تغطيه طبقات وطبقات الأتربة. فلماذا لا نحمله ونزيل عنه غباره وننعش القلب بخطابه؟

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى الآية:

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾[١]، فقال: انهم الذين يتلون القرآن الكريم ويمعنون فيه ويعملون به، تؤملهم وعوده ويخيفهم وعيده ولهم في أمثاله وقصصه عبر، يأتمرون بأمره، ويرتدعون عن نواهيه.

وفي كلام وجهه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسلمين، جاء:

«.. فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن، فانه شافع مشفع وما حل مصدَّق. ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدليل، يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل. وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن. فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق. له نجوم وعلى نجومه نجوم لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه. فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة. فليجل جالٍ بصره وليبلغ الصفة نظره ينجُ من عطبٍ ويتخلص من نشبٍ فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنبر في الظلمات بالنور. فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص».

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٢١.

كما يروىٰ عن الإمام علي عليه السلام أنه أكد أن الله سبحانه وتعالىٰ تجلى لعباده في كلامه ولكنهم لا يستبصرونه ولا يرون تجليه.

«.. فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما أراهم من قدرته..».

حديث الإمام علي عليه السلام ينبهك لتستوحي تجليات ربك من كلامه. فما طريقتك في حبه والانتفاع من فيضه؟

أنت مهما تفكر في مضامين القرآن الكريم لم تتجاوز إلّا الحد الأدنى. فالسير في أفاقه سير في الجنة العليا. وقد أنبأنا الإمام علي عليه السلام بأن درجات الجنة على عدد آيات القرآن الكريم ثم نوه لنا عليه السلام بأن لا نتوقف عند أي مقام من مقامات القرآن الكريم بل نرتقيه، فلنا في غيرها مقامات أخرى.

وأنت ايها العزيز! لا تذهبن إلى أن هذه الدرجات المبذولة لقراءة القرآن الكريم في الجنة. فلو تتشبث بالتفكير في هذا الكتاب وتتفاعل معه من صميم القلب وأنت تقرأه، تنال نفس هذه الدرجات منذ لحظتك. واعلم أن انكشاف الحجب عن السرائر في غدك في ﴿يوم تبلى السرائر﴾ لا يتحدد بسرائر الأشرار بل يعم سريرة وسويداء الأبرار.

لأزيدنك لهفة لقراءة هذا الكتاب العظيم آتيك بمجموعة من الأحاديث في هذا المضمار:

يقول خاتم الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم:

«القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور

من الظلمة، وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغـوايـة، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة وفيه كمال دينكم وما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النار».

وقال ﷺ أيضاً:

«أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي ثم أمتي ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي؟».

وفيما أوصى به مولى الموحدين الإمام علي عليه السلام:

«عليكم بكتاب الله فإنه الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع و..... والعصمة للمتمسك والنجاة للمتعلق، لا يعوج فـيقوم، ولا يـزيغ فيستعتب، ولا تخلفه كثرة الرد، وولوج السمع. من قال به صدق ومن عمل به سبق».

وكذلك، عن رسول الله ﷺ نقرأ:

«إقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

«الذكر»

أو تعلم أن الذكر والحب قرينان متلازمان، فالذكر يولّد الحب على ان يكون ذكراً إرادياً. والحب بدوره عندما يتبلور ويسلط شمسه على قلبك ينشغل قلبك على الدوام، شئت أم أبيت، بذكره.

أَوَ تعلم أن «الشاهد» يعني «الحاضر في الموقف» وقد سمي المحب شاهداً. وتسميته هذه مردها أن قلب المحب لا يفارق الحبيب ولو للحظة واحدة حتى يصل به إلى غياب الذكر وحضور المذكور في القلب. أقول هذا مكتفياً فأنا لست بصدد الكلام في هذه الحال ها هنا.

ايها العزيز! سلوك هذا الطريق لا يكون مع الخمول والكسل، مع تذمر القلب والملل، وبأقدام أضناها الاكتئاب والكلل، بل يراد له الدفء والحيوية، التضحية والتحمل كما في حكاية الفراشة وهي (حول الشمعة) تحوم، بل بلال تحت وطأة الحجر الثقيل يتجرع الألم ولا يقوم. وهل تعلم أن مثل هذا لا يكون إلّا في ظل الحب والوله. ففيه مضاد السموم القاتلة وعلاج الآلام المثقِلة.

فإن كنت مذعناً لصحة هذا الكلام أضف على ذلك ما مر بـنا بأن الحب لا يأتي ثماره إلّا مع «الذكر». وكلما ازداد الذكر تعمق الحب، لا سيما إذا كان الذكر متبادلاً بين المحب والحبيب، فيصبح الحب كذلك متبادلاً.

هذا هو ما نستوحيه من الآية:

﴿فاذكروني اذكركم﴾[1].

انظر إلى عظمة رحمته المتجلية في هذه الآية. عبد ضل الطـريق، وقع في متاهات أشعرته بالضيق، فصار يذكر ربه عند كل مضيق، مرة مع انفلاق الصبح وأخرى عند انتصاف الليل. ومتى ما فعل فلا بأس، سواء اختار موعداً مناسباً أو غير مناسب فإنه يحب عباده ولم يقسّم في حضرته المواعيد إلى مناسب وغير مناسب. فإنه إلى جانبك على الدوام. أما ترى الشمس ترعى الذرات والبحر يحتضن القطرات ويجود بالدر والمجوهرات.

عظيم مطلق يذكر كل وضيع، قادر مجيد يدعو إليه حتى من جاء بذنب شنيع. وا أسفاه على عبد ضـعيف فـقير لم يـلب هـذه الدعـوة الكريمة.

تعلم أن الجميع فيما سوى المعصومين معرضون للهفوات والزلات. الأبرار هم الذين إذا وقعوا فيها توجهوا إلى الحبيب وأزالوا آثارها عن أنفسهم بذكره:

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٥٢.

﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾[١].

الحج عبادة تؤدى مرة كل سنة على أكثر تقدير وهكذا الصوم. والصلاة تقام خمس مرات في اليوم وبقية العبادات أيضاً يتحدد كل منها بشروط وزمان ومكان.

فما أعذب ذكره! لا يقيده زمان ولا يحدده مكان، ولا حاجة له لوسائل وأدوات. فما دام قلب المحب ينبض يتخذ الذكر علاجاً لكل عسر له يتعرض.

هذا ما تؤيده الآية:

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقِنا عذاب النار﴾[٢].

وأنت في هذه المحطة الأولية انظر هل لك اتصال مع الحبيب إلّا بذكره؟

ماذا تعرف عن ذاته وصفاته؟ إذاً، اعتصم بنفس هذه الأسماء، فليس للسالك إلى الله مع بداية انطلاقته معتصم إلّا الاسم، اسم الحبيب. تشبث بالاسم لتصل أنت من خلاله إلى المسمى.

بم تصف حال من أسمعه جبريل اسم حبيبه فأكرمه ووهبه نصف ملكيته من الخراف ولما أعاد له الكرة تغاضى عن النصف الآخر. بذل

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٣٥.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ١٩١.

كل ملكه إزاء اسم. انظر فيم قدم ووهب حتى مُنح من ربه «خليل الله» لقباً.

الصلاة عدة ركعات والصوم عدة أيام والحج أيام من السنة، فهل تعرف أن الحبيب يكثر العطاء لمن يزيده استحباباً. وقد طلب من الذكر كثيره، فاستمع إليه يقول:

﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾[١].

وكذلك:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾[٢].

أمهلني اسمعك حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام:

«من كان ذاكراً لله تعالى على الحقيقة. فهو مطيع. ومن كان غافلاً عنه فهو عاص. والطاعة علامة الهداية والمعصية علامة الضلالة. وأصلهما من الذكر والغفلة، فاجعل قلبك قبلة للسانك لا تحركه إلّا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضا الايمان. فإن الله تعالى عالم بسرك وجهرك. وكن كالنازع روحه أو كالواقف في العرض الأكبر، غير شاغل نفسك عما عناك بما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعده ووعيده، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك. واغسل قلبك بماء الحزن والخوف. واجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره إياك فانه ذكرك وهو غني عنك. فذكره لك أجل وأشهىٰ وأثنى وأتم من ذكرك له واسبق. ومعرفتك

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٤١.

٢ ـ سورة الأحزاب، الآية ٤١.

بذكره لك تورثك الخضوع والاستحياء والانكسار. ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق وتصغر عند ذلك طاعتك. وإن كثرت في جنب منته فتخلص لوجهه ورؤيتك ذكرك له، تورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه وهو استكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه، ولا تزداد بذلك من الله إلّا بعداً ولا تستجلب به على مضي الأيام وحشة».

نستوحي من الحديث الآنف أن الله لا يذكر عبداً لا يدخل حضرته ذاكراً وأنت لا تجلس إلى مائدة نعمائه إلّا بدعوته. ولك في دعوته واجتذابه لك شرف يتوّجك وهو، في روضة ذكره الزاهية، بنعمه يرزقك.

دعنا نهنأ بنعم روضته فنسلك طريق الخشوع، لعلنا نظفر بعون نصيرنا وننتهي إلى لقاء من أحبّنا ووصال من به ولهنا. فلا توفيق إلى ذكره إلّا بدعوته حتى وإن بذل المحب في طلبه جداً ولوصاله جهداً.

فلتعلمن أن التوفيق للذكر يستوجب شكراً والتوفيق للشكر شكراً آخر. هكذا إلى ما لا نهاية. فكم تقدر على أداء حق شكره؟ فالعبادات كلها توفيق منه.

وأنت تذكره سخّر لسلطانه مملكة قلبك بكلها. أخل ساحة الفؤاد من سواه وأرصد باب القلب بوجه كل طارق ومتحامل.

هكذا أراد الله وإلى ذلك وجه عباده في الآية:

﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾[١].

وفي حديث له نصح رسول الله المسلمين أن يعرجوا على روضة الجنة إن اهتدوا إليها، سئل أين هي؟ فقال ﷺ بانها في مجالس ذكر الله.

ويروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«كان أبي كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وانه ليذكر الله وآكل معه الطعام وأنه ليذكر الله، ولقد كان يحدّث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله وكنت أرىٰ لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلّا الله. وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر».

فيا ايها العزيز! إياك أن تتغاضى عن هذه العطايا والنعم وأن تعف نفساً عن الجلوس إلى هذه المائدة. اعمل على احياء ذكره في قلبك مهما استطعت، فذكر الله نهر جار في رياض قلوب العارفين بينما قلوب الغافلين بيداء قاحلة لا تجدن فيها قطرة واحدة متى ما إليها نظرت:

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خَبُث لا يخرج إلّا نكداً﴾[٢].

فنهر ذكره إن اخترق ديار القلب أنمى فيها أشجار المعرفة. ولأشجار المعرفة ثمرة. ألَا وهي لقاء الله. فإن كنت راغباً في جني هذه

١ـ سورة المزمل، الآية ٨.

٢ـ سورة الأعراف، الآية ٥٨.

الثمرة تشبث بالذكر وسيلة وادعوه ليلهم قلبك ذكره:

﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾[١].

وأنت لَتَرى المحب ما أن ينساق اسم حبيبه على لسان ترتعد أوصاله جميعاً طرباً فلا تجدن من ذكر يجري في عروقه إلّا ذكر حبيبه واللهفة تشده أن يكون ذكر الحبيب مدار حديث الجميع. ويكون الجميع له أذن صاغية. وكفاك هذا مقياساً لنفسك فانظر هل يسرك أن يردد الجميع اسمه أم تنفر من مجالس ذكره؟

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾[٢].

وتذكرهم أزليته بفنائهم وغناه بفقرهم وحياته بمماتهم وقدرته بضعفهم:

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكروا بها خرّوا سُجداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾[٣].

فأينما تجلت آياته ذكروه ومظاهره استجلوه. فهو لهم في كل مكان عيان وله في كل حدب وصوب عنوان وفي كل ذرة بيان:

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يَخروا عليها صماً وعمياناً﴾[٤].

لا تضل دربك في ظل حب ليلاك بل اجعل ظلها دليلاً يرشدك إلى

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ٢٤.

٢ ـ سورة الأنفال، الآية ٢.

٣ ـ سورة السجدة، الآية ١٥. سجدة واجبة.

٤ ـ سورة الفرقان، الآية ٧٣.

دارها ومنطلقاً للظفر بنوالها. فبظل خيمة ليلى لم يضل المجنون قط دربه.

واعلم أن باطن الانسان لا يستوعب في آن واحد أكثر من فكرة واحدة فإن اخترت ذكر الله موضوعاً رحل عنه كل ما سوى الله: ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾، فالحق عندما يحل ضيفاً في دار القلب يأخذ القلب استعداده للوصال وإن غاب ذكره عن القلب صار مرتعاً للباطل.

يقول حبيب الله محمد المصطفى ﷺ:

«ان الشيطان واضع خطمه[1] على قلب ابن آدم. فاذا ذكر الله خنس، وإذا نسي التقم. فذلك الوسواس الخناس».

ماذا تتقصى وأنت واقف على مسرح الحياة والشعور بالضياع يخيم عليك؟ بمن تسترشد للاهتداء إلى درب السعادة؟ وماذا تعرف عن دواء جراح القلب الواله؟ فأينما تقصيت ماء وجدته سراباً، وعمراناً في القلب تجلى لك بوراناً، لا تعيث بمصيرك فساداً وبعمرك عبثاً، فلا راحة لبالك إلّا بذكره ولا سعادة إلّا في جنبه:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر اللهِ تطمئن القلوب﴾[2].

فما أتعس من لم يهتد إلى الله على مر حياته ولم يفنِ قلبه في حبه. قضى عمراً في السذاجة واباد السعادة بالبلاهة فتوعر طريقه وعم الشقاء حياته فصار نافراً من نفسه.

---

١ ـ الخطم: أنف الانسان.

٢ ـ سورة الرعد، الآية ٢٨.

ألم تسمع قوله تعالى:

﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾[1].

بل تنتهي حياته إلى نكد أكبر حيث تصبح عتمتها وعماها آنذاك أبدياً ومن نوع آخر لا زوال له:

﴿ونحشره يوم القيامة اعمىٰ. قال رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[2].

---

١ ـ سورة طه، الآية ١٢٤.

٢ ـ سورة طه، الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

«الذكر وأنواعه»

اعلم ان ذكر الله عموماً ذكر ولكن لنوع الذكر درجات:

(أولها):

ذكر ينساق على اللسان دون القلب. اللسان يردد والقلب يتأرجح وحبات السبحة فيما بين الأنامل تتحرك.

مثل هذا الذكر وإن لم يكن له حظ في تسخير القلب ولكنه لا يخلو من فائدة. فأقل نفعه كما يذكر أحد العظام هو أنه يشغل أحد أعضاء جسمك بذكر الله. ربما كانت هذه الخطوة شافعة عند ربك فتنال بـها نعمة وما فوق ذلك من جزيل عطائه.

(وثانيها):

ذكر يشغل اللسان والقلب معاً، يستوفي آداب الذكر كلها، اللســان يتجرد عن لقلقته السريعة ويجنح للتوؤد. وهو ذكر يفضل بالطبع على نوعه الأول.

(وثالثهما):

ذكر يكف فيه اللسان عن النطق حيث يصبح القلب موطن الذكر والمذكور معاً.

أيها العزيز! هل اختبرت أن تكون ماضياً في الطريق فتتوقف في وسطها. فتجد نفسك في بحر الأفكار غريقاً وأنت غافل عمن حولك، تضع يديك على جبهتك مفكراً، لم تكن في خطاك بفكرك مستنيراً ولكن عندما يتحول وجودك كله إلى فكر تتعطل الأعين والآذان والأيدي والأقدام. إنها حالة لو أحرزها فكر لارتقى إلى مقامات عالية ودرجات رفيعة. طوبىٰ لمثل هذا الذاكر.

هذا هو الذكر الذي أمرنا به الله تعالىٰ في الآية:

﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول﴾[١].

وكذلك في الآية:

﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾[٢].

ردد معي: يا سكينة الروح، إجعل روحي لك موطناً دائماً. فالوله بك ألذ وأعذب من حب كل حبيب. متى ما التفت إلى ذاتي وجدتك مسيّراً لي مؤثراً في وجودي، قائماً على نفسي. إلهي! لا تقصِ عن قلبي ذكرك قط.

(رابعها):

ذكر تأتيه كلما أوشكت على التهاوي في المعصية. فيحجبك عن

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

٢ ـ سورة الأعراف، الآية ٥٥.

اقتراف الذنب. فأنـواع الذكـر السـالفة ليس لهـا رادع. وهـذا الذكـر، الشيطان له مانع. تسير الى تلك في طريق أمين، وقـراصـنة الضـلال لاغتيال هذا الذكر بمتربصين. طوبى لعبد اجتاز بسلام كل كمين.

فلنقرأ حديثاً للامام جعفر الصادق عليه السلام:

«ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من خصال ثلاث يحرمها. قيل: وما هن؟

قال:

ـ المواساة في ذات الله،

ـ والإنصاف من نفسه،

ـ وذكر الله كثيراً.

أما واني لا أقول لكم: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر. ولكن ذكر الله عندما أحل له وذكر الله عند ما حرم عليه»[1].

تلك الأذكار كانت في طور الباطن وهذا الذكر ينفذ من الباطن إلى الظاهر فيعم الأعضاء جميعاً. فاتجاهها ليس فكرياً فحسب بل فـعلياً أيضاً. فرؤية عين الحقيقة تؤثر فيك وترشد وجودك بأسره.

فالمؤمن هو من يوظف كلامه وفعله ونظراته في أمـر الله. وحـتى سكوته تفكير في الله وهو بحد ذاته ذكر الله.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«المؤمن نطقه ذكر وصمته فكر ونظره اعتبار».

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٩٣، ص ١٥١.

(وخامسها):

ذكر تأتي به بين جموع الغافلين وبواسطته تذكِّر أحد الظالمين! بالله وبفضله تنمي الرياض على أرض سبخة:

يقول رسول الله ﷺ:

«ذاكر الله عز وجل في الغافلين كالمقاتل عن الفارين والمقاتل عن الفارين له الجنة».

أما الإمام الصادق عليه السلام فإنه يقول:

«الذاكر لله عز وجل في الغافلين كالمقاتل في المحاربين».

«أوقات الذكر»

مر بنا أن الذكر لا يتحدد بحال وزمان فموعده في كل حين وآن، قياماً وقعوداً، ليلاً ونهاراً.

أنت تعلم أن الجسم بحاجة إلى الغذاء. وأنت تلتفت إلى هذا في مواعيد خاصة وإن كنت قادراً على مده في كل لحظة بلقمة.

نفسك هي الأخرىٰ تستمد قوتها من ذكر الله.

رفد معدتك بالغذاء بشكل متواصل يؤذيها، خلافاً للنفس. فمهما تكثر الذكر تستجلب بذلك نوراً جديداً. ومع هذا هنالك مواعيد تتفتح فيها أبواب السماء للذاكرين، أذكرها لك بحسب تسلسل أهميتها:

١ ـ الأسحار: وهي أفضل مواعيد الذكر وقد حدثتك عن مكانتها في بحث صلاة الليل. فاقرأ ما جاء في القرآن عند ذكر الأبرار حيث يقول تعالى:

﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾[١].

هل لك رغبة في اصطحاب هؤلاء. انهض سحراً وتجرع من كأس الذكر شكراً.

يقول عز وجل أيضاً:

﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون﴾[٢].

ايها العزيز! لا تسلبن نفسك فيض هذه الساعات الميمونة. فهل يركن إلى الفراش من وجد إلى ثمالة الليل طريقاً؟ فمن ظفر جاهاً ناله سحراً.

٢ ـ الصباح الباكر.

٣ ـ الأصيل: (من أقصى العصر إلى المغرب).

يقول تعالى:

﴿واذكر اسم ربك بكرة واصيلاً﴾[٣].

و ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾[٤].

فلنعرج على حديث للإمام الحسين عليه السلام في هذا السياق:

«اللهم إني أسألك توفيق أهل الهدى وأعمال أهل التقوى ومناصحة أهل التوبة وعزم أهل الصبر وحذر أهل الخشية وطلب أهل العلم

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ١٧.

٢ ـ سورة الذاريات، الآيتان ١٧ و ١٨.

٣ ـ سورة الإنسان، ٢٥.

٤ ـ سورة الأحزاب، الآية ٤١ و ٤٢.

وزينة أهل الورع وخوف أهل الجزع حتى أخافك اللهم مخافة تحجزني عن معاصيك وحتى أعمل بطاعتك عملاً أستحق به كرامتك وحتى أناصحك في التوبة خوفاً لك وحتى أخلص لك في النصيحة حُباً لك وحتى اتوكل عليك في الأمور حسن ظن بك سبحان خالق النور سبحان الله العظيم وبحمده».

***

يا من إلى الراحة خلدت وعن بعد الطريق غفلت ولزاد كثير افتقرت، ردد: إلهي إن لم يكن ذكرك فاعلاً فسوف أكون عن مواصلة الطريق عاجزاً. فليس لي في غير ذكرك زاد ولا لقلبي دون اسمك سند. فدمار القلب تُسببه الغفلة. وفي نسيان ذكرك ذلة، والانقطاع إليك دون غيرك رفعة.

يا من إليه وجهت حبي ووجهي. أخطار الكمين تكالبت لا عد لها ولا حصر فلا أنيس للنفس في هذا المعترك إلّا ذكرك فكن لي من المياه الآسنة منجياً واجعل لي في روضة رياحينك سكناً ليحيا القلب بذكرك وتستقيم الروح في ظلك.

ذات يوم لم يكن لي اسم ولا رسم فيا من منحتني الاسم والرسم! إنني استغنيت عن الاسم والرسم، ألهمني اسمك ورسمك، فلا أجد في نفسي إلّا الفقر والعدم ولا فيك إلّا الوجود والكرم.

تنويهنا لمواعيد فضيلة الذكر لا يعني أن تغفل عنه في سائر الأوقات فذكره لا يقتصر على زمان كما لا تتحدد مواعيد لقاء المذكور

بحين وآن.

اجهد لتحتفظ بريعان روضة قلبك بسقيها من نهر ذكره، فلا طراوة للبساتين ما لم ترتو من فيض ماء رحمته.

«الذكر وأسلوبه»

ايها العزيز! تعلم:

﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾[1].

فقلبك لا طاقة له على استيعاب مذكورين في آن واحد، بالضبط كما تعجز عين الرأس عن النظر إلى أكثر من جهة في لحظة واحدة. قس على ذلك الباطن أيضاً. فإن كنت راغباً في الاتيان بذكر ينفذ من لسانك إلى قلبك، إجهد لطرح أفكار باطنك وانشغالاته بعيداً فتستدخل إليه مذكورك وتجعله موطناً له. سوف أحدثك لاحقاً أن المذكور ليس بغائب عن قلبك بل لك أن تظهر تجلياته بإقصاء الأفكار الخارجية عن بالك.

بادئاً اختر لذكرك موقعاً تختلي فيه، استعمل العطور، أسبغ الوضوء فإنه من مستلزمات الذكر. توجه إلى القبلة واجلس على ركبتيك خاشعاً مسكيناً مستكيناً. أفرغ قلبك بمطردة استلمتها من ربك في

---

١ ـ سورة الأحزاب، الآية ٤.

سياق اعظم ذكرٍ اختاره لنفسه، ألا وهي مطردة «لا».

لابد من إفراغ القلب من كل ما سواه. اقلع الأشـواك مـن أعـماقه وجرّده من القذى ومن تعلقات الدنيا. اعتزل الضجة والكلام واستجلِ العتمة والظلام. انبذ الذل لتنال العز.

اقسم بعزة الحبيب ان ذكره جد عزيز على النفس، في اللـحظات الأولى لتواصلن صراعك مع دوامة الانشغال بما تركت وراء ظهرك من صخب بيئتك. إجلس هنيهة تطلب الهدوء. إطرح الأفكار المـتحاملة. وعندما ترى نفسك على استعداد ريّع ذهنك بطراوة الذكر.

في هذا المجال استمع إلى كلام ذكره الإمام الخميني (قده) نقلاً عن استاذه المرحوم الشاه آبادي (قده) حيث يقول:

«الشيخ الأجل شاه آبادي، روحـي فـداه، كـان يـعبر عـنه بـلب الانسانية بل يمكن أن يقال أن من احدى الجـهات المـهمة للـتقوىٰ والتجنب عن المشتهيات النفسانية وترك أهوائها والرياضات الشرعية والعبادات والمناسك الالهية تقوية العزم وانقهار القوى الملكية تـحت ملكوت النفس».

ولكن لا تتوقع ان تحصل على نتائج فورية عـاجلة بـاتباع هـذه الطريقة بل رويداً رويداً حتى يصبح الذكر ملكة وطبيعة راسـخة فـي نفسك.

ايها العزيز! تحاش التثاقل والتـخلف. أقسـم لك انك إن ذقت لذة الأنس لن يهدأ لك بعدها بال إلّا بذكره.

أحاول جهدي أن أُؤَجّل الحديث عن هذا الموضوع إلى البحث القادم، ولكن نسيم الذكر هب وشذى الروض انتشر فطربت نفسي فإن تمالكت جوارحي لا أقوى على منع قلبي من التراقص فإنه فاعل ذلك دون ارادتي. فاستميحك عذراً. إنه عبير لو داعب النفس أقصى ذكر الأغيار ويبقى القلب منفرداً برب الأبرار.

أمهلني أقرأ عليك ختاماً فقرات من «مناجاة الذاكرين» فارفقني:

«إلهي لولا الواجب من قبول أمرك لنزهتك من ذكري إياك على ان ذكري لك بقدري لا بقدرك وما عسى أن يبلغ مقداري حتى أُجعل محلاً لتقديسك ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا واذنك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك الهي فالهمنا ذكرك في الخلاء والملاء والليل والنهار والاعلان والأسرار وفي السراء والضراء وانسنا بالذكر الخفي واستعملنا بالعمل الزكي والسعي المرضي وجازنا بالميزان الوفي الهي بك هامت القلوب الوالهة وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة فلا تطمئن القلوب إلّا بذكراك ولا تسكن النفوس إلّا عند رؤياك انت المسبح في كل مكان والمعبود في كل زمان والموجود في كل أوان والمدعو بكل لسان والمعظم في كل جنان واستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير انسك ومن كل سرور بغير قربك ومن كل شغل بغير طاعتك».

«الدعاء»

إن كان في القلوب للحبيب هيام فدعاؤه قوة لنفوس الأنام بل راحة للأرواح والأجسام. فما أسعد محب بدعوة الحبيب أن يطلب منه ما يشاء ليعامله باكرام حيث:

﴿وقال ربكم أدعوني استجب لكم﴾[1].

وهل تعلم مذاق هذه الدعوة في عالم الحب والوله؟ ولكن هل تبغي أفضل مما نحن فيه: الحبيب ليس قريباً منا على الدوام فحسب بل أنه يوجه لنا دعوة مفتوحة لنتوجه إليه متى ما راق لنا:

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعانِ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾[2].

الزمان قد يكون أحياناً مناسباً للكلام مع الناس وأحياناً أخرى غير مناسب، ولكن حديثك مع الله موعده مفتوح، تدعوه في كل حين وآن،

---

١ ـ سورة المؤمن، الآية ٦٠.

٢ ـ سورة البقرة، الآية ١٨٦.

ولا يشترط بمكان.. يسمع دعاءك اينما دعوته. من هنا خاطبه زكرياه قائلاً:

﴿إنك سميع الدعاء﴾[١].

وسئل الإمام محمد الباقر عليه السلام عن أفضل العبادات فقال:

«ما من شيء أفضل عند الله عز وجل من أن يُسأل ويُطلب من عنده وما أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده»[٢].

وآخر يروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

«ادع ولا تقل: ان الأمر قد فرغ منه. ان عند الله عز وجل منزلة لا تُنال إلّا بمسألة، ولو أنّ عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً. فسل تُعط.

يا ميسر إنه ليس من باب يقرع إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه»[٣].

***

كن انيساً بدعائك حبيبك، ملتذاً بقربه ومناجاته والتضرع إليه. إنك تتجرد عن أي شعور بالوحدة وأنت تتوجه إليه بالدعاء، فلك من يستمع إلى كلامك وهمساتك وأنت تبثه اسرار قلبك. وهذا الشعور

---

١ ـ سورة آل عمران، الآية ٣٨.

٢ ـ أصول الكافي، باب فضل الدعاء والحث عليه.

٣ ـ المصدر السابق.

بامتلاك العون والسند يمنحك شعوراً بفراغ بال وارتياح ما بعده فـراغ بال وارتياح.

انك بدعائك تخفف عن القلب وطأة مـا يـثقل عـليه مـن هـموم! فالكلام يخفف من العبء ولكن حذارِ أن تفعل ذلك مع كل مـن هب ودب فقد تثقل عبئك، فلك رب سميع يتقبل بثك ونجواك ويعالج همك ويلبي رجواك وهو سلواك. لا تكبت هـمومك، بـثها له لتشـعر فـوراً بالارتياح في حضرته.

الدعاء يفتح أبواب الأمل في وجهك، ويـزيح عـنك ظـل اليأس، ويمنحك التفاؤل بالمستقبل. اوه ما أعظم مكاسب دعاء ينساق على لسان المؤمن، إنها حقاً نعمة سرمدية ومائدة سماوية.

يقول صادق آل محمد ﷺ:

«عليكم بالدعاء فانكم لا تقرّبون بمثله. ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها. إن صاحب الصغار هو صاحب الكبار».

أما مولى الموحدين الإمام علي عليه السلام فإنه يقول:

«الدعاء مفاتيح النجاح ومقاليد الفلاح. وخير الدعاء ما صدر عن صدر نقي وقلب تقي.

وفي المناجاة سبب النجاة وبالإخلاص يكون الخلاص. فإذا اشتد الفزع فإلى الله المفزع»[1].

أمهلني لأكشف لك عن سر مـن أسـرار الحب. فـليس للـمحب

---

١ ـ الكافي، كتاب الدعاء.

والحبيب ألذ من الحوار. دليلي على ذلك ما نقرأه في الآية:

﴿ما تلك بيمينك يا موسىٰ. قال هي عصايَ اتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرىٰ﴾[1].

وأنت تعلم أن الله عالم بالظاهر والباطن. وهل كان غائباً عنه ما كان كليمه موسىٰ عليه السلام يمسك به في يده؟ فِلمَ يسأله عنه؟

ثم أن الحكيم يجيب بحسب السؤال فلم يرد إلّا بما تعلق بالرضا، فراح يعدد مجالات استعماله بها.

تعمق في هذه الآيات تستوحي منها معاني الحب ومفاهيمه العظيمة. تدرك من خلالها أن الله يحب أن يحاور عبده ويسمع كلامه. هذا هو طريق التعارف، فاعلم! فالعبد يرغب في إطالة اللقاء واستزادة الرجاء، استمع إلى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«أكثِر من الدعاء فانه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل حاجة. ولا ينال ما عند الله إلّا بالدعاء، وليس باب يُكثر قرعه إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه».

ما ألذ ألماً يُلجئك إلى هذا الطبيب، وعناء يأتي بك إلى هذا الحبيب. قد تعلم مدى حبه لك، يؤلمك لتدق بابه وتذكره. يذكر انه لما كان يحب عبده يؤخّر تلبية حاجته ولما كان يحب تضرعه يضيّق عليه وهو يعلم انه لولا ذلك لا يدق بابه ولا يناجيه ولا يسلك درب الدعاء إليه.

---

١ ـ سورة طه، الآيتان ١٩ و ٢٠.

ولكن أنّى لمن لا يناجيه متلوعاً وينسى دعاءه متنكراً إلّا في ظروف الشدة، أن يدّعي حبه لربه؟ لقد فطر الإنسان على أن يرفع يديه إلى السماء في أوان النكبة والحاجة.

يقول تعالى:

﴿وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره، مر كأن لم يدعنا إلى ضرٍ مسه﴾[١].

و **﴿إذا مس الناس ضرٌ دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾**[٢].

وكذلك:

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾[٣].

فلتجهدن على ان تبقي هذا الباب مفتوحاً أمامك في جميع الأحوال فتكون في غناك كما أنت في فقرك وعند اقتدارك كما في انحلالك، وفي صحتك كما في سقمك، ليجعلنك الله من جماعة عباده المخلصين لا ممن لا يطرق بابه إلّا عند حاجته. أجل إنهم، مع ذلك، أفضل ممن لا يسلك السبيل إليه أبداً.

أحسن الإمعان في الحديث التالي عن الإمام الصادق عليه السلام:

١ـ سورة يونس، الآية ١٢.

٢ـ سورة الروم، الآية ٣٣.

٣ـ سورة فصلت، الآية ٥١.

«من تقدم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء. وقالت الملائكة: صوت معروف. ولم يحجب عن السماء. ومن لم يتقدم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة: إن ذا الصوت لا نعرفه».

ويروى عنه عليه السلام أيضاً قوله:

«من سره ان يستجاب له في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء».

لا تغفل عن الالحاح في طلبك، ادعوه متلهفاً متلوعاً فإنه مقام يتطلب اللوعة.

أعود للإمام الصادق عليه السلام لأنقل لك حديثاً آخر عنه:

«إن الله عز وجل لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه. فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن بالإجابة».

أبواب السماء تتفتح للوعة القلوب اللهفى المتقدمة إلى باريها بحاجتها القصوىٰ. وأنت عندما ترى قلبك متأججاً ودمعك منساباً ارفع يديك إلى الله داعياً، توجه متضرعاً. فلو لم تجنِ من حالك هذه حاصلاً وزاداً فلا بد أن لك في هذا الشأن تقصيراً، وإلّا فليس لنا سواه مُنجٍ ولا سميع.

يقول تعالىٰ:

﴿قُل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية...﴾[1].

وكذلك: ﴿... ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾[2].

---

١ ـ سورة الانعام، الآية ٦٣.

٢ ـ سورة الانبياء، الآية ٩٠.

ولكنه عز وجل نوّه:

﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾[1].

فاعلم ايها العزيز أن الدعاء يتطلب منك إحساساً ولهفة كلهفة الغريق للنجاة والجائع المتضور للغذاء والمعتل للشفاء، احساساً ينبثق من وثوقك بانك الفقير المدقع وهو الغني المطلق. كن خاشعاً مستكيناً ليكن نصيبك وصالاً مستديماً. يراد منك الوفاء والصفاء، لابد لك من التحلي بالإخلاص لتظفر بالخلاص.

---

١ ـ سورة غافر، الآية ١٤.

«أوقات استجابة الدعاء»

باب الدعاء مفتوح أمام المخلوقات على الدوام ولكن يمكن القول أن أفضل ساعاته وحالاته هي: بعد صلاة الليل، وفي موعد الأذان، وعند الآصال (قبيل غروب الشمس) وهي ساعات نزول غيث الرحمة من رب العز والنعمة، وكذلك بعد الفراغ من أداء الصلاة، وكلما ضاقت بك الدنيا وآلمت الهموم قلبك، عندها خر لربك ساجداً وتقدم إلى حضرة «الكريم» بما تشاء طالباً.

يروىٰ عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«يستجاب الدعاء في أربعة مواطن: في الوتر وبعد الفجر وبعد الظهر وبعد المغرب».

وعنه عليه السلام أيضاً:

«اطلبوا الدعاء في أربع ساعات: عند هبوب الرياح وزوال الأفياء (قرب الظهيرة) ونزول القطر وأول قطرة من دم القتيل المؤمن فإن ابواب السماء تفتح عند هذه الأشياء».

أما الإمام علي عليه السلام فإنه يقول في هذا السياق:

«اغتنموا الدعاء عند اربع: عند قراءة القرآن وعند الآذان، وعند نزول الغيث وعند التقاء الصفين للشهادة».

وأيضاً يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«كان أبي إذا كانت له إلى الله حاجة طلبها في هذه الساعة» (يعني زوال الشمس)

استمع إلى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«إذا رقّ أحدكم فليَدع فان القلب لا يَرقّ حتى يخلص».

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إذا اقشعر جلدك ودمعت عيناك فدونك دونك فقد قصد قصدك».

وفي مجال آخر يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«إن الله عز وجل يحب من عباده المؤمنين كل (عبد) دعّاء. فعليكم بالدعاء في السحر إلى طلوع الشمس، فإنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، وتقسم فيها الأرزاق وتقضىٰ فيها الحوائج العظام».

«بعد تلبية دعائك لا تنس ربك»

ايها العزيز! قد تكون اختبرت دق هذا الباب كراراً وتقدمت بحوائجك إلى ربك الكريم مراراً، ولكن ما أن ظفرت بمنالك تناسيت أو نسيت المنعم: ربك.

ولكن انظر متى يمكنك الانعتاق من فقرك؟ فالممكنات لا تتجرد قط عن فقرها سواء في دار الدنيا أو دار الآخرة. وإن أزيلت عنك ذرة من فقرك فاعمل حساباً إلى أن غناك فيض من ذات «الغني» فلا سبيل أمامنا إلّا سبيل الفقر.

كلما ملأ الكريم راحة يدك مدّ إليه راحة يدك الأخرىٰ لتعلن أنك لن تكف عن التسول على بابه. تحاش نكران الجميل.

يقول الله تعالىٰ:

﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه، كذلك زين للمسرفين ما كانوا

يعملون﴾[1].

إذاً، كلما لبىٰ لك دعاء تـقدم خـطوة إلى الأمـام وازدد تـقرباً إلى صاحب الدار واختره لك أنيساً، فبذاته أقسم أنك لا تختبر اليأس في حضرته، فبابه مفتوح لا يُغلق، فهل باباً غير بابه تطرق؟ أَوَ تستغني عن حضرة ربك الغني وتمزق أواصر قلبك المنشدة إليه لتسـتعطي فـقيراً مثلك. فما أعظم غبنك لنفسك؟! إعلم أنك بذلك لن تهتدي لماء جلّاب بل إلى سراب:

يحذرك الله ذلك في الآية:

﴿إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾[2].

وهل للمستعطي شيء ليكرمك؟ وماذا بوسع عبد الله أن يهبك؟ لك خالق، رازق، رحمن، رب وعون ومستعان. لك من تظفر بـقربه، فـما حاجتك لغيره؟

﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾[3].

فبنو الانسان أكثر عجزاً عن العطاء قياساً إلى الذباب، فكيف لك أن تختارهم لك سنداً وعوناً؟

---

١ ـ سورة يونس، الآية ١٢.

٢ ـ سورة الأعراف، الآية ١٩٤.

٣ ـ سورة الحج، الآية ٧٣.

أيها العزيز! لست وحيداً بل لك سند وعون! إجهد لتنال رضاه ووصاله. عباده الأبرار حطموا قيود عبودية الأغيار وعاهدوا مولاهم ذي العطاء المدرار للثبات على هذا القرار.

فيا ايها العزيز! استغل لوعتك وسيلة واجعل الأسحار لمناجاة الحبيب والتضرع عند بابه فرصة ثمينة. فما أعظم خسرانك إن مرت بك الأيام والليالي وأنت عن التسول عند بابه لاه.

عن الإمام الباقر عليه السلام:

«لا والله، لا يلحّ عبد على الله عز وجل إلّا استجاب الله له».

«آداب الدعاء»

ايها العزيز! للدعاء مستلزمات منها الاضطرار إلى الحاجة والقلب المتلوع. فللقلب المتلوع في سوق التجارة هذه ثمن أكبر وموعد أقرب للاستجابة:

﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾[1].

تعلم أنه لا يجيب المضطر ولا يقدر على ذلك إلّا الله. إذاً، لا تطرق بابه إلّا شاعراً بالفقر والعناء، مضطراً إلى التضرع والدعاء.

أمهلني اسمعك حديثاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذا المضمار:

«احفظ أدب الدعاء وانظر من تدعو وكيف تدعو ولماذا تدعو وحقق عظمة الله وكبرياءه وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك واطلاعه على سرّك، وما تكن وما تكون فيه من الحق والباطل واعرف طرق نجاتك وهلاكك كيلا تدعو الله تعالى بشيء عسىٰ فيه هلاكك وأنت

---

١ ـ سورة النمل، الآية ٦٢.

تظن أن فيه نجاتك».

قال الله تعالى:

﴿ويدعو الإنسان بالشر دعاءَه بالخير وكان الانسان عجولا﴾.

وتفكر ماذا تسأل ولماذا تسأل والدعاء استجابة الكل منك للحق وتذويب المهجة في مشاهدة الرب وترك الاختيار جميعاً وتسليم الأمور كلها ظاهراً وباطناً إلى الله تعالىٰ، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة، فإنه يعلم السر وأخفىٰ، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من سرك خلاف ذلك.

وسئل رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم، فقال ﷺ: كل اسم من أسماء الله أعظم ففرغ قلبك عن كل ما سواه وادعه تعالى بأي اسم شئت. فليس لله في الحقيقة اسم دون اسم، بل هو الله الواحد القهار.

قال النبي ﷺ: إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «اذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه إلّا أعطاه فلييأس من الناس كلهم، ولا يكن رجاه إلّا من عند الله عز وجل، فإذا علم الله تعالى من قلبه لم يسأله شيئاً إلّا أعطاه، فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء وأخلصت سرك لوجهه فابشر بإحدى ثلاث: أما أن يعجل لك ما سألت، وإما أن يدخر لك ما هو أفضل منه، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله إليك لهلكك.

قال النبي ﷺ:

قال الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي

للسائلين.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: لقد دعوت الله مرة فاستجاب لي ونسيت الحاجة لأن استجابته بإقباله على عبده عند دعوته أعظم وأجل مما يريد منه العبد ولو كانت الجنة ونعيمها الأبدي وليس يعقل ذلك إلّا العاملون المحبون العارفون صفوة الله وخواصه»[١].

فانظر إلى ماذا ينتهي بك الدعاء، فحلاوة ذكره ولذة لقائه تأخذ بيدك إلى حيث تغفل عن ذاتك وتنسى حاجتك. فلو لم تكن راغباً في التسول على بابه فاعلم أنه بدوره لا يعبأ بك ولا يعيرك حناناً واهتماماً.

يقول تعالى:

﴿قُل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾[٢].

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٦٢.

٢ ـ سورة الفرقان، الآية ٧٧.

«مكانة الدعاء»

مع التمهيدات السابقة تنبهت إلى عظمة مكانة العباد من أهل الدعاء والتسول على باب صاحب النعماء، عند ربهم ذي العزة والعطاء. حتى أنه يخاطب حبيبه محمد ﷺ قائلاً:

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[1].

هكذا أوصىٰ نبيه، فهل يخيل إليك أنه سوف يطرد مثل هذا العبد من حضرته؟!

لم ينته الأمر عند هذا الحد بل أنه أمر رسوله بتبني الحلم والتجلد عند استقبالهم حيث يقول:

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾[2].

فهل تتوقع من رب يأمر عبده بمثل هذا، أن ينساك ويغفل عنك؟!

---

١ ـ سورة الانعام، الآية ٥٢.

٢ ـ سورة الكهف، الآية ٢٨.

وفي مجال آخر يصف محبي حضرته في الآية:

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾[١].

وكان زكريا معتزاً بما كان منه على صعيد الدعاء حيث قال:

﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾[٢].

من هنا، فإنه لا يخيب رجاء طالب الحاجة عند حضرته فدعاؤه مستجاب وحاجته ملباة دون شك.

اشحذ أفكارك لتتنبه إلى إشارة لطيفة. محمد هو مربيك ومنشئُك في عالم ملكوتك، وأمك تربيك في عالم ملكك. سوف أحدثك عن الملكوت في بحثنا القادم حول (التجلي). أما عن عالم الملك وربوبية الأم فاستمع إليّ. عندما تهم الأم الرؤوف بتعليم ابنها التكلم تلقنه الحرف ثم الحرف والكلمة بعد الكلمة وأول ما تعلمك هو التفوّه باسمها. ألم تر الطفل يبدأ النطق بمناداة أمه ثم أبيه. ولما لقن الأبوان طفلهما التفوه باسميهما كانا أول مستمعين له وهو ينطق. ما أعظم لذتهما بذلك!

ثم تلقنك كيف تطلب حاجاتك: الماء، الحليب، الخبز، النوم،...

قالت وقالت حتى نطقت، ولما نطقت انتعشت والتذت أيما التذاذ.

وفي القرآن تقرأ مئات الآيات تدعو إلى حضرته، قائلها الله وهذه الآيات كررها الله حتى نطقت بها. إنه يحب أن يراك تردد اسمه وتذكر

---

١ ـ سورة السجدة، الآية ١٦.

٢ ـ سورة مريم، الآية ٤.

صفاته وتستعين به. فأمك تزداد لك حباً وفي تلبية حاجتك سعياً إن سمعتك لها بالرأفة واصفاً. كثيرة هي حالات التلقين هذه في القرآن، أذكر لك مجموعة منها:

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا﴾[1].

و ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، انك أنت الوهاب﴾[2].

و ﴿... ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾[3].

و ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾[4].

وهل تعلم مبلغ رضا الله عنك إن رددت ما لقنك وعلمك من أعماق قلبك. بقربه أقسم إنه لقربك واستئناسك به محب. وبرأفته أحلف أنه أول من أغدق عليك بالرأفة، ويريد أن تطلب منه حاجاتك بنفسك، وإلّا فإنه لحاجاتك عارف وعلى أسرارك مطلع.

ردد ما لقنك به واعرض حاجاتك على حضرته. فالمقام مقام

١ـ سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

٢ـ سورة آل عمران، الآية ٨.

٣ـ سورة آل عمران، الآية ١٩١.

٤ـ سورة آل عمران، الآية ١٩٣.

الأنس، مقام الركوع. فمن يحظىٰ بمثل ما صيرك إليه من علو همة ليس له أن ينحني إلاّ أمامه وفي حضرته. انهض لنتوجه إليه معاً، فقد تجلى وجهه و اقتربنا من دياره. تعال نضم قلوبنا وأصواتنا إلى بعض ونردد معاً:

هرچند ما نه‌ایم سزاوار رحمتت
ما را بدانچه نیست سزاوار ما ببخش[١]

وللدعاء في حضرته آداب، إسمعها عن الإمام علي عليه السلام في رده على من ادّعى انه يتوجه إلى الله بالدعاء فما يرى للإجابة من أثر، حيث قال:

«لقد وصفت الله بغير صفاته. وان للدعاء أربع خصال:

- إخلاص السريرة،
- وإحضار النية،
- ومعرفة الوسيلة
- والانصاف في المسألة. فهل دعوت وأنت عارف بهذه الأربعة؟

قال: لا،

قال: فاعرفهن».

---

١ ـ معناه:

ـ وإن كنا لا نستحق رحمتك، هبنا ما لا نستحق (من نعمك).

«النوم»

تعلم أنك إن قضيت ثمان ساعات من يومك نائماً وانعمت بالحياة لستين عاماً يكون مجمل نصيب نومك من عمرك عشرين سنة كاملة. ما أغبن الانسان لو قضى ثلث عمره نائماً وثلثيه الآخرين غافلاً. ولكن لا مفر للإنسان من النوم حيث يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾[1].

أنت اعتبر النوم نعمة، ينال بها جسمك الراحة والاسترخاء، فيستعيد قواه استعداداً لأداء العبادات، وطلب الرزق من لدن المفيض بالنعمات.

النوم نوع من الموت، هذا ما نستوحيه من الآية:

﴿اللهُ يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيُمسك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن في ذلك لآيات لقوم

---

١ ـ سورة الروم، الآية ٢٣.

يتفكرون﴾[١].

والإنسان يوحشه المجهول لا سيما وإن مواجهته مصحوبة غالباً بالوحدة. وباتصالك بعالم النوم يومياً تتعرف على عالم الموت. فأنت تذكَّر مع إغماض عينيك للسكينة طالباً يومَ تطبقهما عن الحياة راحلاً، وباستلقائك على السرير إلقاءك على الحجر لأداء غسلك ميتاً، وباسترخائك عند النوم غياب قواك بعد الممات.

تذكَّر عندما يُعجزك الموت (مثلما يفعل بك النوم) عن الكلام في آلامك، في حاجاتك، وعن البوح بأسرارك. هكذا اتصل ليلياً بعالم الموت. اكسب معه أنساً وأبعِد عن نفسك غربة يوم الرحيل.

وعند استيقاظك من النوم تصوَّر نفسك توسدت التراب في القبر، صرخت متضرعاً لتمنح فرصة الحياة ثانية، ظفرت بالموافقة واختبرت الميلاد تارة أخرى .

احرص أن تنهض من فراشك باسم الله ناطقاً، وأن تستأنف حياتك له ذاكراً، وفي سبيله مجاهداً. فلكل يوم رزق ونعمة وشكر وعبودية. فيومك ليس أمسك، وغدك ليس يومك. وأنت! إياك أن تكون ذاك الذي كان بالأمس بل تَجدَد بتجديد يومك ليزدهر غدك. فالبهاء لا يحرزه اليوم إلّا من اختبر علو الشأن بالأمس.

فيا ايها العزيز! اغتنام الفرصة من طباع المؤمنين. فكن لكل لحظة من لحظات حياتك من المستثمرين. فأنت منذ استلقائك على السرير

---

١ ـ سورة الزمر، الآية ٤٢.

وحتى استسلامك للنوم تقضي دقائق عدة على أقل تـقدير، عـاطلاً. احرص لاستغلالها ببرنامج منظم. فليكن هكذا:

توضأ قبل النوم، ثم اجلس باتجاه القبلة، استعرض أعمال يـومك المنصرم، ماذا فعلت؟ ماذا ادخرت إزاء انفاق يوم من عمرك؟ عـجل بالتوبة الليلة إن لاحظت غفلة من نـفسك. فـما يـدريك إن كـان لك نهوض من سريرك في غدك أم لا؟ فما أكثر من وضـع رأسـه عـلى الوسادة ليلاً فلم يرفعها بنفسه صباحاً! وإن كان لك في أمر الله تقصير كن لنفسك معاقباً بتأخير نومك ساعة تقضيها متعبداً. لن أعود للحديث ثانية في هذا الموضوع فقد حدثتك به في بحث (التخلي).

وأول برنامج تلتزم به في سريرك، إقتبسه من حديث تربوي رائـع عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا آوى أحدكم إلى فراشه فليقل: اللهم، نفسي عندك فـاحتبسها في محل رضوانك ومغفرتك وإن رددتها (إلى بدني)، فارددها مـؤمنة عارفة بحق اوليائك حتى تتوفى على ذلك».

ولتعلمن ايها العزيز ان لهذا الحديث سحراً فاعلاً، فلك في كل نقطة وحرف منه زيادة من فضل شامل.

ومن برامجك الأخرىٰ أن تقرأ آية الكرسي ففي هذا المضمار يروىٰ عن الإمام علي عليه السلام قوله:

«مـا أرى رجلاً أدرك عقلـه الاسلام، ودلّه في الاسلام، يبيت ليلـة سوادهـا حـتى يـقرأ آيــة الكـرسـي، فـلو تـعلمون مـا فـيها لمـا تركتموهـا».

وأنت تستلقي لا تتغاضَ كذلك عن تسبيحة الزهـراء عليها السلام وقـراءة الآيتين المباركتين الأخيرتين من سورة البقرة:

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربـنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

وإن كان لديك متسع من الوقت فـاقرأ سـورة الاخـلاص إحـدى عشرة مرة أيضاً واستزد استغفاراً. وانهض من النوم متهجداً مـتى مـا شئت. اتل الآية الأخيرة من سورة الكهف:

﴿قُل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما الهكم إله واحد، فمن كان يرجـو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه أحدا﴾.

وإن كنت ما تزال غير متأهب للنوم بعد إبدأ بترديد ذكر مثل «لا إله إلّا الله» بانتظام واذكر رحمة رب الأرباب والأنام. هكذا تدرب على سهولة تسليم روحك يوم قبضك. إفعل ذلك وأنت تعرض على نفسك في هذه اللحظات الآية:

﴿فلا تموتن إلّا وانتم مسلمون﴾[١].

هل تعلم أنه يحدث أن يستسلم الجسم إلى النوم واللسان مـا زال

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٣٢.

يعتلج ذاكراً. فما ألذه من رقاد، حيث يروى أن رب العالمين يفخر إزاء ملائكته بمثل هذا العبد وهو ينوّه لهم بانه قد استلم روح عبده ولكنه ما زال منهمكاً بذكره.

ولا أعلم ان كنت مطلعاً على ما قد يعرض للإنسان في عالم الرؤيا من حالات ومعارف ينال منها سكراً وثمالة في حب ربه تتواصل على مر حياته. وأنت ايها العزيز سوف يلقنك الله منذ اللحظة في أحلامك الصادقة عبراً ودروساً، فاذكر في كل صباح ما رأيت في المنام ولا تعرضه إلّا على عالم بتفسير الرؤيا. فمثل هذه الأحلام اسرار بينك وبين خالقك.

بعض المفسرين يذكرون معنى البشرىٰ في الآية: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ بأنها الأحلام الصادقة.

وصاحب تفسير مجمع البيان يروي في شرح هذه الآية عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه فسرها بأنها: «في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له، وفي الآخرة بالجنة وهي ما يبشرهم الملائكة عند خروجهم من القبور، وفي القيامة إلى أن يدخلوا الجنة يبشرونهم بها حالاً بعد حال».

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المبشرات فأكد أن رؤيا المسلم جزء من النبوة.

كما يفضل لو تيسر لك أن ترقد في سريرك طاهراً.

على أمل أن يعم النفع والسداد نومك ويقظتك.

وفي خاتمة هذا البحث آتيك بحديث قيم عن الإمام الصادق عليه السلام فاستمع إليّ:

«نم نوم المعتبرين ولا تنم نوم الغافلين، فإن المعتبرين من الأكياس، ينامون استراحة ولا ينامون استبطاراً استبصاراً».

قال النبي صلى الله عليه وآله: تنام عيناي ولا ينام قلبي. وانوِ بنومك تخفيف مؤنتك على الملائكة، واعتزال النفس عن شهواتها واختبر بها نفسك. وكن ذا معرفة بأنك عاجز ضعيف لا تقدر على شيء من حركاتك وسكونك إلّا بحكم الله وتقديره، وإن النوم أخو الموت واستدل بها على الموت الذي لا تجد السبيل إلى الانتباه فيه والرجوع إلى صلاح ما فات عنك. ومن نام عن فريضة أو سنة أو نافلة فاته بسببها شيء فذلك نوم الغافلين وسيرة الخاسرين. وصاحبه مغبون، ومن نام بعد فراغه من أداء الفرائض والسنن والواجبات من الحقوق، فذلك نوم محمود، وإني لا أعلم لأهل زماننا هذا شيئاً إذا أتوا بهذه الخصال أسلم من النوم، لأن الخلق تركوا مراعاة دينهم ومراقبة أحوالهم وأخذوا شمال الطريق، والعبد إن اجتهد أن لا يتكلم، كيف يمكنه أن لا يستمع إلّا ما هو مانع له من ذلك. وإن النوم من إحدى تلك الآلات.

قال الله تعالى:

﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا﴾ وإن في كثرته آفات، وإن كان على سبيل ما ذكرنا، وكثرة النوم يتولد من كثرة الشرب، وكثرة الشرب يتولد من كثرة الشبع وهما يثقلان النفس عن الطاعة، ويقسيان القلب عن التفكر والخشوع، واجعل كل نومك آخر

عهدك من الدنيا، واذكر الله تعالى بقلبك ولسانك وخُف طاعتك على شرّك مستعيناً به في القيام إلى الصلاة. إذا انتبهت فإن الشيطان يقول لك: نم فإن لك بعد ليلاً طويلاً يريد تفويت وقت مناجاتك وعرض حالك على ربك. ولا تغفل عن الاستغفار بالأسحار فإن للقانتين فيه أشواقاً»[1].

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٢٠.

«آداب تناول الطعام»

يا صاحب النفس الكريمة! في المآدب، يهدف البعض من حضورهم الى مشاهدة الدار والمتاع والبعض الآخر لتناول شراب وطعام ومجموعة غيرهما للقاء صاحب الدار والمقام. لا أعرف من أي هذه المجموعات أنت عند حلولك ضيفاً عند ربك الرحمن؟

خَدَمة الأحشاء يتقصون زاداً، وغير ذوي المأوى مستقراً وأهل القلوب والنفوس الوالهة حبيباً. فأين مقصدك وما هو مبتغاك وماهي ضالتك؟

إن كنت محباً فإنك ما أن تجلس إلى طعام حتى تذكر مُطعِمك، وترىٰ نعمة فمُنعمك. انظر إلى الطعام في مائدتك كم من بني الإنسان جهد ليحفظ لك كل قسم منه وكم من أجزاء ملكه وطبيعته سُخّرت لحراسته؟ كل هذا ليأمن طعامك ويسمع شكرك، لا لحاجة لك بل حباً بك.

إلق نظرة على خبزك، جهدت لتقديمه إليك الأرض وتربتها والغيوم بأمطارها، والشمس بأشعتها، ومحراث ومزارع وحاصد ومِدرَس

وجرين ومطحنة ومركبة وعجّان وخباز. هكذا وصلت لقمة الخبز إلى مائدتك، وما أكثر المتفاعلين في خدمتك! حري بك أن يكون لك مع كل لقمة تتناولها ذكر وشكر.

هذه هي حكاية كل جرعة ترتشفها من شراب وكل لقمة تـتناولها من طعام. نشّط فكرك، فالتفكير امتياز الانسان. خـلق الانســان دون سائر الحيوانات يتابع استفساراته ويتقصى ردوداً لاستفهاماته.

ومن آداب تناول الطعام رعاية نداء ثمين انساق على لسان صادق آل بيت رسول الله ﷺ:

«لو اقتصد الناس في الطعام لاستقامت أبدانهم».

من هنا، كان عليه السلام يؤكد دوماً ان تناول الطعام دون الشعور بالجوع بلاهة وحماقة وان يكون الطعام من رزق حلال.

واعلم أن أمر القلب لا يتواءم مع أمر الأحشاء فـاجهد أن تكـون احشاؤك خاوية عند أدائك جميع فرائض صلاتك. اقـم الصـلاة قـبل تناول الطعام لا سيما وأنت تعتزم الدعاء بلوعة سـحراً، فـاللجوء إلى النوم ليلاً بمعدة ملأى يسلبك خط التوفيق.

أمعن في أحوال قلبك ونفسك في كل عـصر مـن شـهر رمـضان المبارك لتدرك ما به من نور وأنس وكذلك في أحوالها بعد الفراغ من تناول الطعام. فلكم انت متثاقل. ويكفيك هذا اختباراً لتكف عن شحن معدتك تماماً.. لا تقضي عمرك متقصياً الشراب والطعام فهذا هو دون غيره دَيدن البهائم لا الأنام ولكن هيهات. فكم من خَـدَمة الاحشـاء ضحوا بالنفس للقمة وافرة وبالسمعة لنعمة ظاهرة.

ولكن اعلم أن أول الآداب فيما يخص الطعام أن يعد من حلال لا من حرام فان كان من شبهة أو حرام لا يسوغه أو يحلله أي أدب والتزام.

ثم تجنب مائدة احتوت حراماً وإن لم تتناول منه أو كان الجلوس إليها مرفقاً بعمل محرم كما في تناول الطعام مع غير المحارم دون رعاية ما يترتب على ذلك من التزامات أو مع من يغتاب مسلماً، فإنه يعتبر مجلس معصية. وقد حدثتك عن ذلك مسبقاً فالالتزام بآداب المائدة أهم من رعاية آداب المعاشرة. لأنك خلالها تكون جالساً إلى النعمة وكذلك إلى المنعم، فهل لك وأنت تنظر إلى آثار رحمة الكريم وكرم المنعم أن ترفع راية التمرد ضده.

وقبل الأكل احرص على غسل يديك والأولىٰ أن تجلس إلى المائدة متوضئاً وتبدأ باسم ربك المنعم. ومع أن الفقهاء يرون أن الآية: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه﴾[1]. ترتبط بالذبح ولكن التزامات السالك تفرض عليه تعميمها إلى كل طعام ومأكل. وقد ذهب البعض زيادة في رعاية الادب لذكر اسم الله مع كل لقمة يتناولونها.

أنت أدرى بحاجة بدنك القصوى إلى الطعام. والجسم هو مركبة نفسك، فاحرص على تنمية نفسك وأنت تهتم بتنمية جسدك فأنت لو تناولت طعامك ذاكراً منعمك تنمي جسمك بما يأتيه عليك الذكر من قوة ونفسك بما تضيء في أرجائها من نور. وأولياء الله جملة يؤكدون

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

أن رعاية آداب تناول الطعام لا تقل أهمية عن التزام آداب الصلاة.

وفي هذا المجال آتيك بنبذة من مستحبات الطعام[1]:

«كل وأنت تشتهي، وأمسك وأنت تشتهي، فالأكل بتصغير اللقمة وتجويد المضغ وأقرّوا الحار حتى يبرد، وافتح بالملح واختم به».

ومن آداب الأكل الأخرى التناول مما وضع أمام الشخص نفسه دون الآخرين، وصب ما لا يتجاوز عن قدرة الشخص عن الأكل في الصحن فترك ما يتلف منه في الصحن عند الفراغ من الأكل انتهاك لحرمة النعمة، وعدم التكلم اثناء الأكل، وغسل اليدين والفم والتقدم لله بالشكر بعد الطعام، وعند تناول الطعام على انفراد (قدر المستطاع) وعدم استعابة الطعام لكي لا يكون استعابة لفضل المنعم.

***

ولكن أعود للتذكير بأن حلّية الرزق تعتبر من أهم المتطلبات والشروط، وقد ذكرت لك حديثها سالفاً.

واعلم أن لكل من آداب تناول الطعام فلسفة لصالحك شرحتها لك في الجزء الثاني من كتابي «استجلاء أنوار القرآن والحديث في ثوابت العلم الحديث».

وختاماً ألفت انتباهك إلى حديث للإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

---

١ ـ لزيادة معلوماتك انظر تفاصيلها في كتاب «حلية المتقين» للعلامة المجلسي (ره).

«قلة الأكل محمود في كل حال وعند كل قوم لأن فيه مصلحة للظاهر والباطن والمحمود من المأكولات أربعة: ضرورة، وعدة، وفتوح وقوت، فالأكل الضروري للأصفياء، والعدة لقوام الأتقياء، والفتوح للمتوكلين، والقوت للمؤمنين، وليس شيء أضر للقلب المؤمن من كثرته فيورث شيئين: قسوة القلب، وهيجان الشهوة، والجوع أدام للمؤمنين وغذاء لروح وطعام للقلب، وصحة للبدن.

قال النبي ﷺ: ما ملأ ابن آدم وعاء أشر من بطنه.

وقال داود عليه السلام: ترك لقمة مع الضرورة إليها أحبّ إليّ من قيام عشرين ليلة.

قال عيسى ابن مريم عليه السلام: ما أمرض قلب بأشد من القسوة وما اعتلت نفس بأصعب من نقص الجوع وهما زمامان للطرد والخذلان»[١].

١ ـ مصباح الشريعة، ص ٧٧ و ٧٨.

«الصوم»

ما دمنا قد وصلنا إلى هذا المقام دعنا نعرج على الصوم وفوائـده أيضاً. فأذكر لك في سياقه بحثاً. فمن تعلقات نفسك ميله لرخاء الجسم وامتلاء الأحشاء. ومن صفات حبيبك غناه واستغناؤه فلا حاجة له إلى الأكل ولا إلى الشرب.

وأنت كلما قلّلت من الأكل ازددت حظاً في جهاد النفس وقرباً من صفات الله. فلكم من الأنوار تسطع في وجودك باختبار الجوع، أنوار تدرك بها الحقائق وتنكشف لك علوم ومعارف لا تحتويها كتب مدونة ولا تستوعبها إلّا قلوب منورة.

يذكر الديلمي في ارشاد القلوب ان رسول الله ﷺ خاطب الله عز وجل قائلاً:

«يارب! دلني على عمل أتقرب به إليك.

قال: اجعل ليلك نهاراً، واجعل نهارك ليلاً.

قال: يارب! كيف ذلك؟

قال: اجعل نومك صلاة وطعامك الجوع»[١].

***

وأنت صائم يغدو نهجك نهج الملائكة، فإنها تحيا بنور العبادة فتتحول جملة إلى كائنات نورانية. وأنت هكذا، عندما تعتزل تمنيات النفس من أكل وشرب واتباع شهوة، تقترب من عالم المجردات والملكوت الأعلىٰ.

وإن كنت راغباً في التحلي بالحلم والتجلد والالتحاق بركب الصابرين اعتصم بالصوم إلى ذلك وسيلة فانها أفضل طريقة لترويض النفس:

يقول خاتم الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى ﷺ:

«الصوم نصف الصبر».

فلكل نعمة من نعم الله زكاة والصوم زكاة صحة الأبدان. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾، فانفق من جسمك في سبيل مرضاة الله بتحجيمه جوعاً. فأنت كلما انفقت من ذخر الجسم تضاعف نصيبك من عالم النفس. وأنت صائم ارفع يديك قبل المغيب داعياً ربك تطلب منه قرب لقائه حيث قال رسول الله ﷺ:

«الصائم لا ترد دعوته».

والصوم من اختبارات ربك ليرى كم يخضع العبد له ويسلم له

---

١ ـ المجلد الأول، ص ٣٧٤.

مقاليد أموره. هذا ما تؤكده الآية:

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع﴾[١].

انه هو منعمك الذي يقدم لك رزقه مدراراً، وهو آمرك ان تتخلى عن طعامك وشرابك لساعات. النعمة تحفز رغباتك، والرب يستنهض نفسك، ففي تلبية دعوته التذاذ وفي طاعة أمره اجتذاب. والارادة ارادتك تُرى في أي اتجاه توجهها؟ هل تسترضي منعمك أم تتقصى طعامك؟

واعلم أن المعاصي كثرة في طريق طلب التمنيات وفي الجوع استزادة لحب الطاعات. ولأراك متلهفاً لرضا حبيبك نافراً من طعامك وشرابك، آتيك ببعض الأحاديث الشريفة في هذا السياق:

- «طوبى لمن طوى وجاع وصبر، أولئك الذين يشبعون يوم القيامة».

- «لا تشبعوا فيطفى نور المعرفة من قلوبكم».

- «القلب ينتحل الحكمة عند خلو البطن».

- «نور الحكمة الجوع، والتباعد من الله الشبع والقربة إلى الله حبه المساكين والدنو منهم.

ولا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فان القلوب تموت كالزرع إذا كثر عليه الماء».

***

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٥٥.

وفضائل الصوم كثرة كثيرة اكتفيت بهذه المجموعة منها طلباً للايجاز. فاجهد ايها العزيز، إن كان بمقدورك، أن تزيد على صوم شهر رمضان ايام استحباب الصوم وإن استزدت فيوم من كل اسبوع بل انتهج بنهج الرسول ﷺ حيث كان يصوم يوماً ويفطر آخر.

وختاماً تعمق في نداء الإمام جعفر الصادق عليه السلام حول الصوم حيث يقول:

«قال النبي ﷺ: الصوم جُنة من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات وقطع الهمة عن خطوات الشيطان والشياطين، وانزل النفس منزلة المرضى الا تشتهي طعاماً ولا شراباً، وتوقع في كل لحظة شفاك من مرض الذنوب وطهّر باطنك من كل كذب وكدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله تعالى، قيل لبعضهم إنك ضعيف، وإن الصيام يضعفك، قال: إني أعده بشر يوم طويل والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه.

وقال رسول الله ﷺ: قال تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به، والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطمع وفيه صفاء القلب وطهارة الجوارح وعمارة الظاهر والباطن والشكر على المنعم والإحسان إلى الفقراء وزيادة التضرع والخشوع والبكاء وجُلُ الالتجاء إلى الله تعالى وسبب انكسار الهمة وتخفيف السيئات وتضعيف الحسنات وفيه من الفوائد ما لا يحصى، وكفى بما ذكرناه منه لمن عقله ووفق لاستعماله إن شاء الله تعالى»[١].

---

١ ـ مصباح الشريعة، الباب ٦٣.

«السلوك إلى الله والزواج»

لا أعرف ايها القارىء العزيز في أي وضع اجتماعي أنت؟ هل بدأت حياتك الزوجية أم لا؟ ولما كان حديثي موجه إلى الشباب فأنا بصدد تخصيص جل كلامي الى الفتيات والفتيان.

إن كنت اجتزت هذه المراحل وتشعر بالارتياح من وضعك فاحمد الله واشكره وإن كنت تشعر بما يخالف ذلك فاجهد حتى المقدور لاصلاح حياتك الزوجية.

فسنة رسول الله ﷺ تقوم على الزواج حيث قال ﷺ: «النكاح سنتي» وأنت بالزواج تنال الشعور بالسكينة والاستقرار. هذا ما أكده الباري تعالىٰ في قوله:

﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾[1].

فالرجل بمفرده موجود ينتقصه عالم الوجود والمرأة هكذا أيضاً. ولكن هذان المخلوقان يبلغان منتهى الكمال والجمال في ظل الحياة

---

١ ـ سورة الاعراف، الآية ١٨٩.

المشتركة إن بذلا جهداً وفيراً في اختيار الزوج المناسب.

من مراحل الحياة الحساسة التي قد تحدث لديك قفزة أو تلقيك في أحضان الفساد أو تهديك لدرب الرشاد، هي مرحلة الزواج. فبه تشق طريقك أما إلى الهناء أو إلى الشقاء.

من هنا أحسن التفكير في مواقع الحياة. فإن لم تجد لدى أبـويك صلاحاً لا تنقاد إليهما في هذا المجال. فقد يتقصيان مستوى الماديات، ومدى المعلومات ووضع الدار والممتلكات ويغيب عنهما الاستفسار عن الايمان والمعتقدات وهما في غفلة عن أنـهما الحـجر الأسـاس للحياة.

ايها الشاب الفـاضل! كـن واثـقاً مـن أن الدار والأثـاث، المـركبة والمنصب والمال لا يأتي أي منها بالسعادة ان تجرد عن الايمان بينما تثبُت وترسخ الايمان فـي القـلب يسـتتبع تـوفر جـميع السـعادات. فالسعادة شعور باطني وليس خارجي، فأنت إن أصبت فـي بـاطنك رشاداً، مالك وللظاهر؟ وإن اهتديت إلى طريق السداد فهل لك حاجة إلى مسالك الفساد؟

ألم تسمع قوله تعالى:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾[1].

وقوله عما تحسبه حياة شيقة ومطلوبة:

﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً. ونـحشره يـوم القـيامة

١ ـ سورة النحل، الآية ٩٧.

أعمىٰ﴾[١].

والآن التزم بهذه الفكرة وهي إن كنت راغباً في إضفاء السعادة على حياتك الزوجية اتخذ إلى ذلك الايمان والتقوى وسيلة. فالسعادة تتأتىٰ من جواره والهناء من قربه، وإلّا فـإنك تأنس حـتى بـرفقة مشـؤوم وتبتهج بالخربة كالبوم.

هل سمعت أن سيد المتقين الامام علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن عند خطبته لغير سيف ودرع وناقة من مال الدنيا مـالكاً فـباع الدرع لتأمين نفقات العرس. فرافقته سيدة نساء العـالمين إلى عش زوجـي بمثل ذلك الفقر المبين فكان لها زوجاً وإن ضاقت يداه رحب صدره حتى صار أوسع من العالم العظيم. فمن هذا الزوج الجليل رزقت بأبناء لكل منهم شرف نبيل.

فيا ابنتي اجعلي فاطمة الزهراء عليها السلام أسوة ويا بني انصب شخصية علي عليه السلام أمامك رمزاً لحياتك وقدوة.

كن وديعاً مع زوجتك فالقلب لا يسكـن إلّا للـوداعـة والحب لا يترعرع إلّا في عش تعمه الرأفة والحنان. كونا كاليدين تغسل إحداهما الأخرىٰ. فالزوج اللائق هو من يصقل قـلب الزوجـة مـن الشـوائب والزوجة الجديرة تزيل الصدأ عن قلب الزوج. أتما وجـود بـعضكما وتعاضدا في الشدائد فهي الغاية المنشودة في الزواج.

فـالمهموم يـراد له مـن يـذهِب عـنه هـمومه. فـالأصحاب كـثرة

---

١ ـ سورة طه، الآيتان ١٢٤.

والأنصار منهم قلة. وأنت تختار الزوجة اجعل الايمان أول خصيصة مطلوبة. لا أقول إهمل الجمال بل اطلب الكمال وفضله.

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأَمَةٌ مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾[١].

وإضافة إلى الأنس والسكينة اطلب في حياتك الزوجية تنشئة أبناء مؤمنين هدفاً، لتترك الأفضل منك لك خلفاً. لا تودع حاصل عمرك في يد من يعيث فيه كفراً بل حري بك أن تكون ثمرة حياتك ابناً طاهراً شكوراً ينفعك حتى بعد مماتك.

ايها العزيز! لستُ بصدد ايضاح أسلوب رعاية الزوجة أو الزوج في هذا الكتاب. فإنه موضوع لا يؤدى حقه إلّا في كتاب منفرد. ولكني أقول لك إن كنت للسلوك إلى الله طالباً إجهد لتوخي منتهى الدقة عند اختيار الزوجة. فالسلوك إلى الله في دار تعج بالغضب والعتاب والحدة لا يتيسر إلّا بتوؤد ومشقة. فالعبادة تتطلب الهدوء والسكينة. والسكينة لا تتوفر إلّا في صروح الحب لا الضغينة. والغضب والاستياء مواطن التشوش والابتلاء.

تقصَّ زوجة لائقة لتصبح دارك جنة. فإن لم تهتد إليها فالعزوف عن الزواج أفضل وأسلم عاقبة.

إنك باختيارك زوجة لائقة تنتشل نفسك من كثير من المزالق القاتلة. والآن شد حزام العزيمة لنواصل رحلتنا معاً.

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٢١.

«أحاديث مأثورة»

يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«ما شيعتنا إلّا من اتقى الله وأطاعه. وما كانوا يعرفون إلّا بالتواضع والتخشع وأداء الأمانة وكثرة ذكر الله».

وممــا انســاق على لسـان خـاتم الانـبياء والمـرسلين مـحمد المصطفى صلى الله عليه وآله في حجة الوداع:

«يا ايها الناس! والله ما من شيء يقرّبكم من الجنة ويباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به. وما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلّا وقد نهيتكم عنه. ألا وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها.

فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحمل أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بغير حِلّه، فإنه لا يدرك ما عند الله إلّا بطاعته».

أما الإمام جعفر الصادق عليه السلام فإنه يقول:

«وتفسير التقوى ترك ما لبس بأخذه بأس حذراً مما به البأس، وهو

في الحقيقة طاعة بلا عصيان وذكر بلا نسيان. وعلم بلا جهل، مقبول غير مردود».

وجاء في حديث نبوي شريف:

«واعلم الجهاد جهاد النفس لأنها أمارة بالسوء، راغبة بالشر، مـيّالة إلى الشهوات، متثاقلة بالخيرات، كثيرة الآمال، ناسية الأهوال، محبة للـرئاسة، وطالبة للراحة».

وقد أكد الإمام علي عليه السلام أن أعظم الأعمال عند الله هي التسـليم، والخوف من المعاصي والتقوى.

«كيف تتحقق التقوى»

ايها الكريم! أُسميك الكريم لانني أعلم أن كل من أدار لدقيانوس زمانه وطاغوت عصره ظهراً وخلص لله تعبداً أسماه ربه فتىً كريماً:

﴿.. إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾[1].

وأنت قطعت كل اتصال بالشيطان ونفرت من نفسك. تمهل واحرص على أن لا تبتعد عن حضرة ربك لترى ما يريك وخاطب ربك يومياً مترنماً بابيات للشاعر مولوي:

سـايه خـويش از سـر مـن بـرمدار

بـيقرارم بـيقرارم، بـيقرار

زيـر دست تـو سـرم را راحـتى است

دست تو در شُكر بخشى آيتى است[2].

---

١ ـ سورة الكهف، الآية ١٣.

٢ ـ معناهما:

(أولاً): اعلم أن أفضل أساليب الثبات على التقوى هو تواصل ذكر فناء الدنيا وتجنب التعلق بها وحبها. هذا ما حدثتك عنه بالتفصيل في بحث «التزكي». وفي هذا المجال أذكرك بآيتين آمل أن ترددهما كلما ظهرت لك الدنيا ببهارجها:

ـ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

ففي كل ربيع تذكّر شتاءه لتستوعب بل ترىٰ بأم عينيك مفاهيم هذه الآية. الأزهار تذبل، والبهارج تَفنىٰ، والعز يتحول ذلاً، والبراعم تغيب والجمال يُستبدل قبحاً.

هكذا يوضح تعالىٰ أحوال الدنيا في هذه الآية، فبم فيها تتعلق؟ وبأي محاسنها تنخدع؟

متى ما تجرفك خُدع الدنيا نحو اقتراف الذنوب تذكر هذه الرموز وأكثر التفكير في عاقبة الأمور فلا تبتهج لما لا قرار له ولا تعلق قلبك به.

← ـ «لا ترفع عن رأسي ظلك، فأنا مشوش، مشوش، مشوش».

ـ «أشعر بالارتياح وانا تحت يدك (ائتمر بأمرك) فيدك (أمرك) في مجال العطاء آية».

١ ـ سورة يونس، الآية ٢٤.

اسمع تحذير خالقك في هذا الشأن تقرأه في الآية:

ـ ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلّا متاع﴾[١].

وفي رسالة له إلى أحد الملوك مثّل الغزالي الآخرة بالفخار الباقي والدنيا بالذهب الفاني وأردف أنه لابد للعاقل أن يفضل الفخار الباقي على الذهب الفاني فكيف إذا كانت الدنيا، حقيقة، فخار فان والآخرة ذهب باقٍ.

فهذا النهج في التفكير يعينك في الابقاء على تقواك ملكة في نفسك.

(ثانياً): فكّر أن الله معك يرافقك على الدوام فلَتَعلمن: ﴿هو معكم أينما كنتم﴾، وقد أكد ذلك في قوله: ﴿نحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾.

إنه مولاك الذي يستند إليه على مر اللحظات قيام وجودك. تردد أنفاسك وتواصل دقات قلبك لا يتيسر بإرادتك بل بقدرته. رزقك وحياتك ومماتك أمور كلها مسيّرة من قِبله وتتواصل في حضوره. منه مبدأك وإليه مآبك. فكيف تجرؤ على التمرد عليه؟

إنه لم يقطع سبله أمامك. فاستعذ بحضرة كبريائه كلما تحامل الشيطان عليك. فِر من هيمنة الشيطان إلى ملجأ الرحمن، وادعه ليأويك بفضله. فلولا فضل الرب الكريم ما كان لأحد خلاص من اخطبوط الشيطان الرجيم:

﴿ولقد همّت به وهمّ بها لولا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء

---

١ ـ سورة الرعد، الآية ٢٦.

والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[١].

هذه هي حكاية ذلك الصديق العفيف النبي يوسف عليه السلام وخلاصه من كيد زليخا، خلاص لم ينله إلّا بفضل الله ورحمته.

الآن أجزم بأنك تستوعب موقفك ومقامك، تركت العذر وراء ظهرك وبلغت محطة النور. إنها محطة ساحة الكبرياء فاهنأ بالعيش في ظل التقوى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من أحد ابداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾[٢].

هنيئاً لك تقواك. فبه تتواصل سعادتك أبدياً وتعج ديارك أملاً وطموحاً. أيام الحرية حلت بك ايها السالك. احمد الله واشكره فقد استحق عليك اتيان الشكر ولا تعقد الآمال قط على نفسك، فجميع التمنيات والآمال منه هو.

---

١ ـ سورة يوسف، الآية ٢٤.

٢ ـ سورة النور، الآية ٢١.

«الفهرس»